كلية اللغة العربية بأسيوط

المجلة العلمية

وقوع المساواة في النظم العالي بين القبول والرفض

إعداد

د/ رفعت علي محمد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بأسيوط

(العدد الواحد والثلاثون – الجزء الرابع ٢٠١٢م)

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لله ، وصلاة وسلاماً على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وصحبه وبعد

فمن المقرر فى تاريخ العلوم أن علم البلاغة – من العلوم – التى مازالت فى حاجة إلى بحوث ومراجعات ، لإضافة الجديد وتطويره ، وتنقية القديم ومراجعته .

ولذا قالوا إن علم البلاغة نضج ولم يحترق – على غير ما عليه علوم عربية أخرى استوت قواعدها ، واكتملت ضوابطها ، وأصبح من العسير – إن لم يكن من المحال – إحداث تغيير أو تبديل فى قواعدها ورسومها ....اللهم إلا التبسيط والتنقيح فيها

مع هذه المرونة التى انماز بها علم البلاغة عن غيره من العلوم ، إلا أننا وجدنا الدرس البلاغى يقف عند مرحلة (السكاكى) الذى جمع البلاغة فى (مفتاحه) ، واختصرها الخطيب فى (تلخيصه) ، وانحصر البحث البلاغى بعد ذلك فى شرح التلخيص ، وشرح شرحه ...وهكذا .

وللحق .. نذكر أنه كانت . ثم .... بعض محاولات التجديد والتطوير فى بلاغتنا العربية ، أصاب بعضها ، وانحرف الآخر عن مساره ؛ لاعتماده نظريات وتوجهات منبتة الصلة عن ثقافتنا وبيئتنا ولغتنا .

وقد كانت هناك بعض المآخذ على مدرسة السكاكى وقواعده . نشأت من عنايتهم بالضبط والتقسيم أكثر من عنايتهم بمدى انطباق هذه القواعد على شواهد الكلام البليغ ، والأسلوب العالى ، والنظم المعجز ، ولا شك أن ذلك راجع إلى طبيعة المنهج الذى ارتضته تلك المدرسة من وضع القائمة أولاً ثم الاستشهاد عليها.

هذا وقد اخترت باب (الإيجاز والإطناب والمساواة) أعيد قراءته ، وأراجع شواهده لما وجدت فيه من خلل فى قواعده ، واضطراب فى رسومه وحدوده ، وقلق فى شواهده .أزعم أننى لم أجد مثلها فى أى باب آخر من أبواب هذا العلم الشريف .

ولعل الخلل نشأ – بدءً – من أن كثيراً من علماء هذا الفن قبل السكاكى منهم عبدالقاهر ، لم يعرض لباب (الإيجاز والإطناب والمساواة) ، ولأن السكاكى كان مسوقاً بقسمه عقلية ، فإنه أثبت المساواة واسطة بين الإيجاز والإطناب ، ولكن لم يعدها من طرائق الكلام البليغ بل ذكرها ليقيس عليها الإيجاز والإطناب المقبولين ؛ لذا لم يمثل لها ، ولكن – مبدأ الخلل والخطأ كان فى أن الخطيب قد أورد لها شواهد من الكلام البليغ ، بل ومن النظم المعجز ، مع تسليمه بأن المساواة ، تكون فى متعارف الأوساط ، وهى لا تحمد فى باب البلاغة ، مما يترتب عليه جعل هذه الشواهد – وفيها آيات قرآنية – فى الدرجة الأدنى من درجات البيان .

وللأسف سار الدرس البلاغى على هذا النحو الذى اختطه السكاكى وغير فى مساره – قليلاً – القزوينى ، فذكروا هذه الشواهد فى مؤلفاتهم تحت باب المساواة ، بل أضافوا إليها شواهد أخرى حسب رؤيتهم وفهمهم للمساواة على نهج السكاكى والقزوينى .

وهذا مما يحتاج إلى إعادة نظر فى قضية ضبط المصطلح والمقياس الذى تقاس به " المساواة " ، ثم إلى قراءة ثانية و فهم جديد لهذه الشواهد التى أدرجوها تحت باب (المساواة) .

وقد اقتضى ذلك أن يكون البحث على هذا النحو:

أولاً : بين القاعدة والشاهد أخطاء ومزالق .

ثانياً : المساواة عند البلاغيين بين القبول والرفض .

ثالثاً : مُثُل من المساواة فى النظم العالى ..قراءة ثانية .

عسى أن ينجح ذلك المنهج فى إعادة قراءة هذا الباب المهم فى بلاغتنا العربية ، آملاً فى قراءات لأبواب بلاغية أخرى ، تسعى إلى تعديل الوجهة وتصحيح المسار ..... والله من وراء القصد .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباحث

د / رفعت على محمد

بين القاعدة والشاهد أخطاء ومزالق

كان الأدب العربى مصدراً غنياً لشواهد الباحثين فى علوم العربية ، فقد أمدهم بما يسعفهم فى إنشاء القواعد التى تحكم علوم العربية وترسى دعائمها وتشيد بنيانها.

والبلاغة كانت من تلك العلوم التى استمدت شواهدها من الأدب العربى – شعراً ونثراً – وإن كانت أكثر حرية فى ذلك الاستمداد من علوم أخرى خضعت لقواعد حاسمة ، وضوابط صارمة .

وقد كان تعامل العلماء مع الشواهد على هذا الأساس – وضع القاعدة أولاً ثم الاستشهاد عليها – مزالق خطيرة ، وأخطاء فادحة ، ومآخذ كثيرة ، لاسيما عند التطبيق العملى ، فليس للنص – عندهم – أى قيمة أدبية أو فنية ، وإنما القيمة فى إثبات القاعدة وتحديدها تحديداً دقيقاً ، والاستشهاد لها .

ولو وقف الأمر عند نصوص الأدب العربى ، إذن لهان الأمر ، ولكننا وجدنا ذلك – أيضاً – عند استشهادهم بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وفى ذلك ما فيه من الخطر والخلل بياناً وعقيدة حيث " حملوا كلام الله ما لم يحمل ، وخرجوه على وجوه أبعد ما يكون عنها ، فالقاعدة عندهم مصونة لا تمس ، أما النص القرآنى فقد أخضعوه لتلك المقاييس ، والأسس ، وهان عليهم أن يسيئوا إلى النص القرآنى ، ولم يهن عليهم أن يمسوا قواعدهم بالتعديل أو يتهموها بالقصور عن أن ترقى إلى مستوى النص المقدس ، وتضفى عليه ما هو أهل من الإجلال والسمو.[1]

ولعل هذا مما يحتم علينا مراجعة بعض قواعد هذا الفن ، والتخلص من تلك

---

[1] أسس بلاغية تطبيقها على البيان القرآنى محظور مثل من المبالغة والسجع ، ص ١ د/عبدالعظيم المطعنى ، مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، العدد الأول ، ١٤٠١هـ.

الأسباب التى أدت إلى هذا الخلل ، كتعميم المقاييس البلاغية ، وقطع النص عن سياقاته ومقامه ، ونقل آراء السابقين دون مناقشة أو تمحيص ... وغيرها ،فإذا كان الأمر يتعلق بكتاب الله فعلى البليغ أن يكون أكثر حيطة وأشد حذراً ، إنه لا سبيل أمامه ، وهو يتأمل أسرار النظم المعجز من أن يتسامى فوق رسوم فنه ، ولا يربط نفسه بمناهجه وقواعده كى يدرك ما تعجز عنه تلك القواعد من أسرار إعجازه ، ودلائل تفرده عن الكلام البشرى ، ولذلك فإنك ترى (بعض رجالات البيان ممن جمعوا بين التأليف فى علوم البلاغة وتفسير القرآن يدونون فى كتبهم من أصول الفن وقواعده ، ما يتجاوزونه ويتسامون عليه ، حين تضيق أرديته عن استيعاب النظم الحكيم ، حتى لتظن أنهم غير هؤلاء الذين أملوا تلك القواعد ، وحبروا تلك الأصول ، لا غرو أن يسموا بيان الرجال بسمو ما يتصدون له من البيان ، ولا عجب أن يتسع القول فى القرآن ، لما ضاقت عنه كتب أهل البيان.[١]

وثمة شواهد قرآنية ، وأخرى من شعر الفحول ، لم تنسجم مع قواعد البلاغة ورسومها ، فحكم عليها هؤلاء البلاغيون حكماً ينال من بيانها وإعجازها ، بدلاً من الحكم على القاعدة بالقصور والخطأ ، وإنها مما يحتاج إلى تعديل وإعادة نظر .

ومن أمثلة ذلك : ما ساقه البلاغيون فى باب (فصاحة المفرد) من أن من عيوب فصاحته " التنافر " وقد أرجعوا سببه ، إلى اتحاد المخرج أو قربه جداً .

قالوا : " وأشد الحروف المتقاربة قبحاً حروف الحلق ، فإن لها مزيداً فى القبح ، إذا كان التأليف منها فقط ، فإن ذلك كمشى المقيد " . [٢]

وذكروا من القبيح قول امرئ القيس :

---

(١) من أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم ، ص ٥ ، د / محمد أمين الخضرى.

[٢] ينظر : سر الفصاحة : ٦٤ ، وشروح التلخيص ٧٨/١.

غـدائره مستشـزرات إلـى العـلا تضـل المـدارى فـى مثنـى ومرسـل [١]

كذلك عدوا منه قولـه تعالى : ﴿ ﴾

يس /٦٠ .

فـإن فـى " أعهـد " ثقـلاً قريبـاً مـن المتنـاهى ، فيخـل بفصـاحة الكلمـة ، لأن الهمزة والعين والهاء من حروف الحلق ، ثم خرجوا ذلك ، بأن الكلام الطويل المشتمل على كلمة غير فصيحة لا يخرج عن الفصاحة ، كما لا يخرج الكلام الطويل المشتمل على كلمة غير عربية عن أن يكون عربياً " .[٢]

ولا يخفى عليك ضعف هذا التخريج ، وتهافت هذا الاعتذار ، لذا حكم عليه السعد بأنه غلط فاحش ، لأن فصاحة الكلمات مأخوذة فى تعريف فصاحة الكلمة ، وكيف يخرج الكلام المشتمل على كلمة غير فصيحة عن الفصاحة .[٣]

إذن يبقى حكم التنافر والخروج عن دائرة الفصاحة عالقاً بالآية ، وبيت امرئ القيس ...

وهذا خطأ فادح ، نتج من تصور خاطئ لمفهوم الثقل وسببه ، ومن بتر للآيـة والبيـت عـن سـياقهما أمـا عـن الأول : فـإن الضـابط الصـحيح فـى الثقـل وعدمـه إنمـا هـو الـذوق الصـحيح ، وليسـت القواعـد المنطقيـة مـن قـرب المخارج أو تباعدها.....

أما عن الثانى : فإن للسياق والمقام الأثر الأكبر فى اختيار الألفاظ ثقيلة أو

---

[١] ديوانه ص ١٧ ت / محمد أبو الفضل إبراهيم.

[٢] شروح التلخيص ٨١/١ ، ٨٢.

[٣] المطول ص ١٧ .

خفيفة .

وإذا كان ذلك واضحاً فى بيت امرئ القيس ، من جهة أن التفشى فى صوت الشين يشبه إلى حد كبير انتشار الشعر وتشعيثه وذهابه هنا وهناك ..

أقول : إذا كان ذلك واضحاً فى البيت ، فإنه فى الآية أوضح وأجلى لأن هذه الكلمة التى اجتمعت فيها هذه الحروف الحلقية جاءت لغرض لا يقوم به غيرها، ولا يسد غيرها فى مقامها ، فالآية فى سياق خطاب المجرمين وتوبيخهم بأنهم نسوا العهد القديم وثقل عليهم حتى ضلوا ، فوبخوا بقوله سبحانه :

﴿ 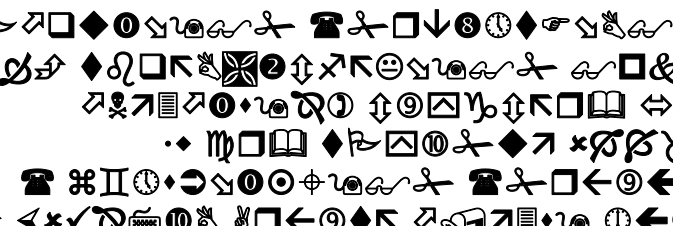 ﴾

يس / ٥٩، ٦٠.

فهذا من جملة ما يقال لهم بطريق التقريع والإلزام والتبكيت بين الأمم بالامتياز والأمر بمقاساة حر جهنم " .[١]

تأمل التبكيت فى قوله " وامتازوا " مع أن هذا الانعزال عن جماعة الفائزين ليس فيه تمييز بل فيه ذل ومهانة ، وتأمل نداءهم " يا بنى آدم " ، وفيه تبكيت – أيضاً – حيث أخرج الشيطان أباهم من الجنة ثم هم يعبدونه .

وعلى هذا ففى هذا الثقل الناشئ عن اتحاد المخارج دلالة على ثقل العهد عليهم ، حتى رموا به ، وعدلوا إلى غيره .

وكذلك نجد اجتماع الحاء والهاء فى قوله سبحانه : ﴿

[١] روح المعانى ٢٣/٥٨ ، ٥٩ .

﴿ ﴾ الإنسان /٢٦ .

دالاً على ثقل قيام الليل على النفس ولذلك جاءت فى الذكر الحكيم مع قيام الليل فى ثلاثة مواضع ، فى قوله سبحانه : ﴿ ﴾ ق / ٤٠ .

وفى قوله تعالى : ﴿ ﴾ الطور /٤٩ .

والآية التى معنا ، مما يدل على محاكاة الثقل اللفظى المعنوى ، وكيف تطوع النفس هذا الثقل وتعتاده حتى يصير لها لذة ، تحاكى لذة الخروج من الثقل إلى الخفة والإطلاق فى النظم .

ويرى الشيخ الطاهر أن ليس فى آية يس ثقل ، لأن توالى العين والهاء وهما حرفان متقاربا المخرج من حروف الحلق إلا أن تواليهما لم يحدث ثقلاً فى النطق بالكلمة ينافى الفصاحة بموجب تنافر الحروف لأن انتقال النطق فى مخرج العين من وسط الحلق إلى مخرج الهاء من أقصى الحلق خفف النطق بهما ، وكذلك الانتقال من سكون إلى حركة زاد ذلك خفة .

ومثله قوله تعالى : " وسبحه " المشتمل على حاء وهى من وسط الحلق وهاء وهى أقصاه إلا أن الأولى ساكنة والثانية متحركة ، وهما متقاربا المخرج ولا يعد هذا من تنافر الحروف.[1]

وقس على هذا كل آيات الذكر الحكيم التى قد يظن أن فيها ثقلاً فى النطق ،

[1] التحرير والتنوير ٢٣/٤٦.

مـن مثـل قولـه تعـالى ﴿ ﴾ التوبـة/ ٣٨ ، حيث تجد قدراً من الثقل الفصيح ، لأنـه يصف تقاعسهم وتثاقلهم ، وخلودهم إلى الأرض ، واستشعارهم مشقة الجهاد وعـزوف أرواحهـم عنـه ، وقـد دعـوا إليـه فـى عـام العسـرة فكـان مـنهم مـا وصفت الآية.[1]

كذلك تجد قوله تعالى : ﴿ ﴾ هود/٢٨ ، وما فيها من صعوبة فى النطق تحكى صعوبة الإلزام بالآيات وهم لها كارهون ثم هى تصور جو الإكراه باندماج كل هذه الضمائر فى النطق وشد بعضها كما يدمج مع ما يكرهون ويشدون إليه وهم نافرون ، ولهذا تلاءمت هذه الكلمة مع كلمة " فعميت " قبلها التى تصف التعمية والإلباس.[2]

وكـذلك نجـد فـى قولـه سـبحانه : ﴿ ﴾ النسـاء / ٧٢ . بإتيـان " ليطمئن " بصيغتها وجرسها ونطقها وتأكيدها باللام والنون المشددة على صورة الثقل والتعثر فى النطق فى الحروف ، يقابلـه هذا التعثر فى الواقع ، فضلاً عما فيها من تصوير الحركة النفسية لهذا الرجل فى التخاذل والتخلف عن الجهاد ...

كـذلك تجـد فـى قولـه سـبحانه : ﴿

---

(١) خصائص التراكيب ٦٣.

(٢) ينظر الظلال ١٨٧٣/٢ ، وخصائص التراكيب ٦٤.

﴿ البقـرة /١٣٧ ، تثبيتاً لرسول الله ﷺ – ووعداً له بالنصرة على المناوئين من اليهود والنصارى على كثرتهم ، وأن يد القدرة تمتد إليهم جميعاً مرة واحدة .

ومن نماذج هذا الخطأ فى التطبيق على نظم القرآن المعجز ، ما تبدى عند استشهادهم على صور " المبالغة " من الذكر الحكيم .

فقد وضع البلاغيون تعريفاً لها استمدوا أصوله وأقسامه من نماذج الأدب العربى ، وبعد أن ساقوا لها شواهد عدة ، راحوا يستشهدون عليها بل على أبعد أنواعها من القرآن الكريم ، فكان الخطأ والخلل ، وحاولوا أن يلتمسوا وجوهاً لتبرئة الشواهد القرآنية .

فالخطيب القزوينى يدرج قوله تعالى : ﴿ ﴾ النور/ ٣٥ ، فى سلك المبالغة المسماة عندهم غلواً ، وهو هنا مقبول لأنه أدخل عليه ما يقربه من الصحة وهو لفظ " يكاد " ، وقد تابع الخطيب فى هذا الصنيع شراح التلخيص.[١]

ويلحظ "– أنهم أطلقوا عليه لفظ الغلو ، وهو ادعاء ما ليس بواقع واقعاً .

ثم هم فسروا سبب قبوله ، بما يعنى أن سبب قبوله لفظه " يكاد " ولولاها لكانت الجملة باطلة ...

ولقد أدرك بعض شراح التلخيص خطأ هذا القول وشناعته فترك عبارة " ما يقربه من الصحة " إذ صحة كلام الله تعالى لا مزيد عليها ، والأولى أن يقول : ما يخرجه عن حد الامتناع ، أو المراد بالصحة : الإمكان [٢] ، وقد حاول الشراح تخريج

---

[١] الإيضاح مع البغية : ٦١٤/٤ ، الشروح ٤ / ٣٦٢.

[٢] مواهب الفتاح وحاشية الدسوقى : ٣٦٢/٤.

الآية على وجه يبعدها عن الغلو ، ولكن خرجت جميعها ضعيفة متهافتة لم تسلم من التضعيف والتجريح من الشراح أنفسهم [١] ، وما ذلك إلا لخطأ المنهج الذى تعاملوا من خلاله مع شواهد النظم المعجز .

والحق : أنه لا غلو فى الآية وما كان أغنى هؤلاء الشراح عن تلك التخريجات لو أنهم أدركوا أن الله سبحانه وتعالى قد ساق هذا المثل حتى يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود ،ويرسم النموذج المصغر الذى يتأمله الحس ، حين يقصر عن تملى الأصل ، إنه مثل يقرب للإدراك طبيعة النور حين يعجز عن تتبع مداه وآفاقه المتزامنة وراء الإدراك البشرى الحسير " . [٢]

أو يقال إن المراد وصف الزيت بالصفاء والنقاء وأنه لا كالزيوت الأخرى والمعنى : إنه زيت مقارب للإضاءة لصفائه ، وليس مضيئاً حقيقة بل فيه نوع من اللمعان . [٣]

وليس فى هذا غرابة ، ولا خروج عن المألوف ، ولا غلو ولا إفراط ، بل " إن الغلو والإفراط أن يقال : إن فى هذه الآية غلواً أو إفراطاً " . [٤]

وإنا نوجه سؤالاً إلى هؤلاء القوم : ماذا لو لم يدخل على هذا الأسلوب لفظة تقربها من الصحة ، أو تخرجه عن حد الامتناع ؟ ؟

إن ذلك يكون على حسب قواعدهم فاسداً ، فماذا لو جاء فى الذكر الحكيم ، أيكون أيضاً فاسداً ؟!!

---

[١] ينظر : مواهب الفتاح وعروس الأفراح ٣٦٢/٤.

[٢] فى ظلال القرآن ٢٥١٩/٤.

[٣] البديع من المعانى والألفاظ ٥٨ ، د/ عبدالعظيم المطعنى.

[٤] أسس بلاغية تطبيقها على البيان القرآنى محطور ص١٣.

لقد مثلوا [1] بقوله تعالى : ﴿ 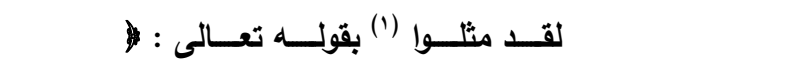 الأحزاب /١٠ ولما لم يكن فى الآية ما يقربها من الصحة ،

لم يكن بد من تقديره ، ويصير المعنى : إن القلوب كادت من شدة الخوف تبلغ الحناجر ، نظراً لاستحالة ذلك عقلاً وعادة .

واضح أن من قال بالغلو فى الآية قد فصل الآية عن سياقها ، كما أنه قد حصر الألفاظ فى معانيها المعجمية .

أما عن سياق الآية فهى تصور الجو النفسى الرهيب الذى منى به المؤمنون فى الخندق ، : ﴿ 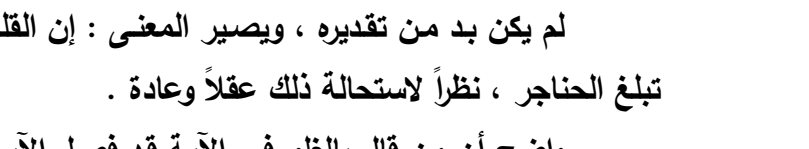 الأحزاب/ ١٠، ١١ .

فعدوهم قد طوقهم فى حركة سريعة محكمة تطويقاً شمل كل الجهات فبلغ الشعور بالاضطراب عندهم كل مبلغ ، فزاغت أبصارهم من أثر الانفعال النفسى العنيف المفاجئ ، هذه الأوضاع أسلمتهم إلى هلع قاتل ، زاغت من أجله أبصارهم ووجبت قلوبهم ، ووصل أثر وجيبها إلى الحناجر فجفت حلوقهم ، وانحبست أصواتهم ، وانعقدت ألسنتهم من شدة الاضطراب والهلع .

---

[1] الصناعتين / ٢٨٠.

فهل إذا قيل بعد ذلك : وبلغت القلوب الحناجر " يصبح هذا التصوير الأمين غلواً وسرفاً وإفراطاً .[١]

ثم إن القلب ههنا ليس مراداً به المضغة ذات الوظائف المعلومة ، بحيث يستحيل تحركه من مكانه ، وبلوغه الحلوق والحناجر ، بل إن القلب هنا هو موطن الطمأنينة أو الخوف ، وهو محط اليقين ، أو الشك .

وكل استعمالات القرآن لهذا اللفظ ومرادفاته لم يرد بها العضو الحسى المعروف [٢] ، ولقد أدرك المفسرون ما لم يدركه البلاغيون الذين فهموا من القلب معناه الحسى .

فقد وجهه الفخر الرازى : بأنه كناية عن الشدة [٣] ، وفسره أبو حيان: على انه مبالغة فى اضطرابها ووجيبها دون أن تنتقل من مقرها إلى الحنجرة ، وقيل : بحت القلوب من شدة الفزع فيتصل وجيبها بالحنجرة . [٤]

وبذلك يتضح خطأ من أدرج هذه الآية فى سلك الغلو وكذلك غيرها من الآيات [٥] مثل: قوله سبحانه: ﴿ ﴾ إبراهيم/٤٦.

وقوله سبحانه : ﴿ ﴾

---

(١) أسس بلاغية ص ١٤.

(٢) ينظر المعجم المفهرس:٥١٠، ٥٤٩.

(٣) التفسير الكبير ١٩٨/٢٥.

(٤) البحر المحيط ٥١٧/٦.

(٥) ينظر: إعجاز القرآن الكريم ٧٦، ٧٧ للباقلانى ت/ السيد احمد صقر ،والصناعتين/٢٨٠.

﴿
القلم/ ٥١ .

وقولـــــــــــــه تعـــــــــــالى : ﴿ ③◆❑🡒◑◆☼ ◆🡄🡕❑◆③ ﴾ ↖✌❑🡒◑◆☼ ◆🡄🡕❑◆③
🙵☠≋✹◆☞🡘✍🡕✂ 🡕🡒🖂🙵 ◆☹🡅➔🖂♌🖂🡕🙵 ☜
❑◆✍•◑🡒❑✌↖ 🙵✍ 🡕🡒🖂🙵 ⅡⅡ
✍❑❽🇽③⑨⌨ ﴾ ق/ ٣٠

وقولــه ســبحانه:﴿ ◑🙶❶◆❻ ✂•❶🙶◑ ﴾ ⅡⅡ🙵✌ ☠←♌🡘✍❑🕮◆❻
✍❑●❍▭ ☎✂❑↖➔🙵▦☒🡕 ⌨⑨⓿🙵➔◆🖃 ◎🙵🕭•▤❑✍
✍☪🡒⑩⓿◆⇔•✍
❑◆🖂ᘐ▫🖂ᘐ✂☪❸❷🙵 ﴾الفرقان/ ١٢.

وقولـــه ســـبحانه : ﴿ ✍•▤•🕭⑩←↖ ✍•☺🖂❷❑❾↖ ✌Ⅱ🙵⌘
✂☎ 🡐↑🡘⓿◆⇔🡘✍ ﴾ الملك/ ٨ .

ولـيس فيهـا غلـو ولا إفـراط ، بـل إن سـياق الآيـات هـو الـذى اصـطفى ذلـك الأسلوب الهادر المبنى على المبالغة والقوة ....

وقد صنعوا مثل هذا الصنيع فى باب " السجع " فقد راحوا يمثلون للحسن والأحسن ولكل ضروبه من القرآن الكريم [1]، وبهذا المقياس الذى وضعوه تصبح بعض المثل البشرية أبلغ وأحسن من بعض الآيات القرآنية .

إن ورود هذه الأنواع جميعها فى القرآن ينقى التفاوت بينها فى الأفضلية لأن القرآن كله فى درجة واحدة من الحسن والبيان ﴿ 🗐 ❑◆✍•❑🡕🖃🖂🕭◆
✌Ⅱ🙵⇳↖☪⑨🙵❷❸🡗🙵 ✂✒★
✍☪▦🕐■🖬🙵☜🡕⌘✍✂ 🙵❍⑩🙵▫☎✂❑←⑨🖂Ⅱ◆❑•✍
▤•🙵❷❸☪✂ 🡘🙵🡅 ﴾ النساء/ ٨٢.

ثم إن هذه الأحكام التى أطلقها البلاغيون فى باب " السجع " تخضع النظم

(١) الإيضاح مع البغية ٦٥٣/٤ وما بعدها ، وشروح التلخيص ٤٤٩/٤.

القرآنى ، لمقياس شكلى ، دون النظر إلى الموقف الذى عبر عنه ، و السياق الذى دار فيه ، ولو فطنوا إلى ذلك لأيقنوا أن كل نوع من أنواعه له مقامه الذى يتطلبه بحيث لا يسد غيره مسده .

وما قيل فى باب الفصاحة " وباب " المبالغة " والسجع " قد يقال مثله فى أبواب بلاغية أخرى ، تحتاج إلى تتبع واستقصاء حتى لا نقع فى مهواة سوء الفهم لمراد رب العالمين ، ولا بد للبلاغى أن يتسامى وهو يتناول آيات القرآن الكريم عن القواعد والأسس التى وضعت للأدب البشرى ، حتى لا يقع فى المحظور .

ومن هذه الأبواب " باب المساواة " الذى وقع عليه الاختيار لنقدم فيه رأياً ورؤية نرجو أن تكون أقرب إلى الصواب .

المساواة عند البلاغيين بين القبول والرفض

تعد المساواة من الموضوعات التى شابها كثير من الخلط والاضطراب فى الدرس البلاغى قديماً وحديثاً ، ومن الأساليب التى تباينت عليها وجهات نظر النقاد والبلغاء على اختلاف عصورهم وتعدد مناهجهم .

فمنهم من يعنون بها ويعدونها إحدى الركائز الأسلوبية ، التى تتصل باللفظ والمعنى ومن الأساليب التى لا يستغنى عنها فى كثير من المقامات .

ومنهم من يغضون من قدرها ، ويهملون أمرها ، ويحذفونها من قائمة الأساليب البيانية ، والدراسات البلاغية .

ولكى يمكن الوصول إلى رأى وسط ، ومذهب أقرب إلى الصواب فى هذه القضية الملبسة ، لابد من عرض آراء العلماء فى المساواة ؛ ليمكننا الوقوف على وجهات نظر هؤلاء العلماء ، ورصد آرائهم ومناقشتها ، وترجيح ما نراه صواباً فيها .

وقبل أن نلج تفاصيل هذه القضية تجدر الإشارة إلى أن كثيراً من رواد هذا الفن – منهم الشيخ عبدالقاهر – لم يفرد (الإيجاز والإطناب والمساواة) بباب مستقل .

مع أن كتابه " دلائل الإعجاز " قد ذكر فيه كل أبواب علم المعانى على منهج المتأخرين ، خلا هذا الباب ، تبعه فى ذلك بعض علمائنا المعاصرين ، ولعل سر ذلك يرجع إلى أن هذا الباب مما تتفاوت فيه الأفهام ومما تتباين فيه الآراء ، فالمثال الواحد يمكن أن يعده قوم إيجازاً ، ويراه غيرهم إطناباً أو مساواة ... كما سيأتى .

أولاً : مذهب القبول .

جمهور علماء هذا الفن على إثبات المساواة وقبولها على ما تقضيه القسمة العقلية ، من دوران الكلام على الإيجاز والمساواة والإطناب ، على حسب وفاء الألفاظ بمعانيها نقصاً أو زيادة أو مساواة ... وعلى هذا جرى الدرس البلاغى إلى يومنا هذا .

بل إن منهم من يرى أن المساواة من أعظم أبواب البلاغة ، بل هو بعينه علم البلاغة ، فأنت حين تصف البليغ تقول : كانت ألفاظه قوالب لمعانيه ، وقد وصفوا كلام الرسول -ﷺ- بقولهم : كان قوله فصلاً لا فضل فيه ولا تقصير ، وقالت أم معبد فى وصف كلامه : لا نزر ولا هذر وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن".[1]

ولكننا سوف نرى أن هذه النظرة المثالية لذلك الأسلوب ، سوف تختل بعض الشئ عند وضع المقاييس والضوابط .

فقد عدّ السكاكى – ومن تبعه – المساواة واسطة بين الإيجاز والإطناب ، وقرروا أن هذا التقسيم من الأمور النسبية التى لا يتيسر الكلام فيها إلا بترك التحقيق والرجوع إلى أمر عرفى – أى متعارف الأوساط – فيعد كل من الإيجاز والإطناب بالنسبة إليه ، فما زاد عليه إطناب وما نقص عنه إيجاز ، وقرر السكاكى أن هذا الأسلوب الذى يجرى في متعارف الأوساط لا يحمد فى باب البلاغة ولا يذم.

ثم قال : فالإيجاز : هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط ، والإطناب : هو أداؤه بأكثر من عبارته ، سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو غير الجمل.[2]

---

[1] ينظر : سر الفصاحة ٢٠٩ ، وتحرير التحبير ١٩٧ ، وفن البلاغة ١٩٠.

[2] مفتاح العلوم للسكاكى ١٢٠.

وكلام السكاكى واضح فى أن أهمية المساواة فى الدرس البلاغى إنما هى ليقاس عليها الإيجاز والإطناب ، إذ هما من الأمور النسبية ، التى يكون إدراكها بالقياس إلى إدراك غيرها، فإن الموجز إنما يكون موجزاً بالنسبة إلى كلام أزيد منه، وكذا المطنب إنما يكون مطنباً بالقياس إلى كلام أنقص منه .

ولكن لما لم يكن ثمة مقدار واضح لكل من الإيجاز والإطناب ، بحيث يمكن أن يقال إن هذا المقدار إيجاز وهذا إطناب ، جعل حد ذلك هو متعارف الأوساط وما يجرى من كلامهم عند المعاملات والمحاورات .

وهذا الضابط الذى حدده السكاكى لم يكن دقيقاً ، ولذا لم يسلم له ، فقد نظر فيه الخطيب القزوينى ، ورأى أن مقياس السكاكى للمساواة فيه رد إلى جهالة ، والمطلوب من التعريف الإخراج من الجهالة لا الرد إليها .

وإنما كان تعريف السكاكى فيه رد إلى جهالة ، لأن كون المقام يقتضى كذا وكذا لا أقل ولا أكثر ، مما لا ينضبط ، فلا يكاد يعرف ، لتفاوت المقامات كثيراً ، ومقتضياتها مع دقتها . [1]

ولم يسلم له الدسوقى ولم ير فى التعريف رداً إلى جهالة ، لأن " المتعارف " محدود معين فيقاس به ويصح التعريف به ، فلا يكون فى البناء عليه رد إلى جهالة؛ لوضوحه بالنسبة للبلغاء وغيرهم . [2]

واضح أن الدسوقى ينظر إلى الكلام وتأليفه ، نظرة منطقية صرفة ، فهو يرى أن الألفاظ قوالب على المعانى فهى على قدرها بحسب الوضع ، بمعنى أن كل لفظ بقدر معناه الموضوع له ، فمن عرف وضع الألفاظ عرف أى معنى يفرغ فى ذلك

---

[1] ينظر الإيضاح ٣٢٥/٢ ، شروح التلخيص : ١٦٧/٣.

[2] حاشية الدسوقى : ١٦٨/٣.

القالب من اللفظ ، ضرورة أن المعنى الذى يكون على قدر اللفظ هو ما وضع له مطابقة ، فإن أراد تأدية المعنى الذى قصده عبر عنه باللفظ الموضوع له من غير زيادة ولا نقص " . [١]

وقد بدا لى أن كلام الدسوقى الذى أراد به أن يدفع رد الجهالة ، ويثبت مقياس " متعارف الأوساط " قد زاد من بيان ضعف وتهافت رأى السكاكى ، إذ ليس بهذه الطريقة الشكلية يفكر المبدع ، ولا بتلك الهيئة المنطقية يصاغ الكلام البليغ .

لذا قرر الخطيب أن يكون مفهوم المساواة راجعاً إلى غير هذا المقياس ، فمفهوم المساواة عنده : هى كون اللفظ بمقدار أصل المراد لا ناقصاً عنه بحذف وغيره ، ولا زائداً عليه بنحو تكرير وغيره .

وهذا بناء على رؤيته من أن المقبول من طرق التعبير عن المعنى : هو تأدية أصل المراد بلفظ مساو له ، أو ناقص عنه واف ، أو زائد عليه لفائدة [٢] أى إن حد المساواة عنده : هو المقدار الذى يؤدى المعانى الأولية بالوضع من غير رعاية للمناسبات الزائدة على أصل المعنى .

أو بعبارة أخرى أن الألفاظ فى المساواة تدل على المعنى دلالة وضعية مطابقية ، وأن المعنى الذى دلت عليه كله مراد لذاته .. ليس فيه زيادة ، ويؤخذ على صاحب الإيضاح ما أخذ على صاحب المفتاح ، لأن أصل المراد الذى تبناه الخطيب مقياساً للمساواة فيه من الخفاء والجهالة ما فى " متعارف الأوساط " الذى نظر فيه واعترض على السكاكى فى شأنه ، واضح أن ثمة قلقاً واضطراباً فى كلام السكاكى ومن تبعه فى تحديد مفهوم المساواة ، وقد دارت حولها مناقشات وردود لم تحسم تلك

---

[١] حاشية الدسوقى : ١٦٨/٣.

[٢] الإيضاح ٣٢٦/٢.

القضية فى التراث البلاغى ، لأنهم سواء جعلوا المقياس هو متعارف الأوساط على رأى السكاكى ، أم تأدية أصل المراد على ما رأى الخطيب ، فالمقياسان متحدان فى المآل ، وهو مقياس مبنى على تصور غير صحيح كما سيجئ هذا بالنسبة لمقياسها .

أما بالنسبة لمكانها فى درج البيان فقد ذكر السكاكى أن المساواة مما لا يحمد فى باب البلاغة ولا يذم ، لأن الغرض تأدية أصل المعانى بدلالات وضعية وألفاظ كيف كانت ، ومجرد تأليف يخرجها عن العى .

وقد سكت الخطيب على هذا الحكم ، كما صنع غيره من الشراح ، وسكوته على ذلك إقرار به ، وإلا لانتقده ونظر فيه كما صنع فى المقياس الأول ، ومع ذلك فقد استشهد لها من القرآن الكريم كما سيجئ !!! مما يقتضى – على رأيه – إخراجها من البلاغة !!!

ثانياً : **مذهب الرفض** :

لم يذكر كثير من البلاغيين – قديماً وحديثاً – مصطلح المساواة " واقتصر على القسمين الآخرين ، لأنها فى نظره ، لا تجئ فى الكلام البليغ ولا تحسن فى النظم العالى ، ولا تروق لأصحاب المواهب البيانية ، والإبداع الأدبى ، فابن الأثير يدخل المساواة فى الإيجاز، ويعدها قسماً من الإيجاز بغير حذف يطلق عليه" التقدير".

وعرفه بأنه : ما ساوى لفظه معناه مع إمكان التعبير عن معناه بمثل ألفاظه وفى عدتها . [1]

ومثل لها بقوله تعالى : ﴿ ﴾ ←

[1] المثل السائر ٢/٢١٩.

عبس/١٧ – ٢٣.

ويعلق عليها بقوله ألا ترى إلى هذا الكلام الذى لو أردت أن تحذف منه كلمة واحدة لما قدرت على ذلك ، لأنك كنت تذهب بجزء من معناها ، والإيجاز هو ألا يمكنك أن تسقط شيئاً من ألفاظه . (١)

وقد استطرد فى ذكر آيات أخرى ، وأحاديث نبوية وأبيات شعرية ، مما يندرج عند بعض العلماء فى سلك المساواة ، ولكن ابن الأثير يدرجها ضمن الإيجاز ويؤكد ذلك بتحليله الأدبى الرائق ، الذى يبرهن من خلاله أن تلك الشواهد لا يمكن أن تسلك فى مسلك المساواة ، ونحا نحوه العلوى وأطلق على المساواة : الإيجاز بالتقرير ، وعرفه بأنه : ما تكون ألفاظه مساوية لمعناه لا يزيد أحدهما على الآخر بحيث لو قدر نقص من لفظه ، لتطرق الخرم إلى معناه على قدر ذلك النقصان.(٢)

وقد مثل له بأمثلة قريبة من أمثلة ابن الأثير .

وقد نحا نحوهما السيوطى وزاد عليهما إنكاره للمساواة كلية ، ونفى وجودها فى القرآن الكريم .

جاء ذلك فى معرض حديثه عن وجوه إعجاز القرآن الكريم ، فمن هذه الوجوه

(١) السابق ٣٢١/٢.

(٢) الطراز ١٢٠/٢ وينظر تحرير التحبير ١٩٨.

إيجازه فى آية ، وإطنابه فى آية أخرى ، ورأى أنهما من أعظم أنواع البلاغة ، أما المساواة ، فهى غير مقبولة ، بل هى مما يكاد يوجد ، خصوصاً فى القرآن الكريم [١].

ثم فند أمثلة المساواة التى ذكرها السكاكى والخطيب ، وأرجعها إما إلى الإيجاز أو إلى الإطناب .

وممن ارتأى هذا الرأى الشيخ / الطاهر بن عاشور فقد جزم بعدم وقوع المساواة فى الكلام البليغ ، بله المعجز، إذ كيف تكون لمتعارف الأوساط ، وهى لا تحمد فى باب البلاغة ولا تذم ..... ثم نقر بوقوعها فى الكلام البليغ ، وفى القرآن الكريم ؟!

ويحسم صاحب التحرير والتنوير هذه المسألة بقوله : والوجه أن المساواة لم تقع فى القرآن الكريم ، وإنما موقعها فى محادثات الناس التى لا يعبأ فيها بمراعاة آداب اللغة . [٢]

وممن ذهب إلى هذه الوجهة من علمائنا المعاصرين الشيخ / دراز ، فقد فند تقسيم السكاكى والخطيب ، وبين وجوه اضطرابه واختلاله ، والذى نشأ من قياسهم التوسط بالمقدار الذى تؤدى به المعانى الأولية فى لسان العوام ، وعليه فقد جعلوا الفضيلة البيانية فى طرف النقص ، أو طرف الزيادة على عكس ما بنيت عليه قاعدة الفضائل من تبوئها مكاناً وسطاً بين الأطراف ..

لذا رأى فساد هذا التقسيم وعدم جدواه ، بل واستحالة تحققه عند التطبيق ... لا سيما فى الذكر الحكيم .

---

[١] ينظر معترك الأقران ٢٢٢/١.

[٢] التحرير والتنوير ٣٣٦/٢٢.

ورأى أن يكون التقسيم على طريقة أخرى ، وذلك (بجعل المقياس هو المقدار الذى يؤدى به المعنى بأكمله ، بأصله وحليته على حسب ما يدعو إليه المقام من إجمال أو تفصيل بغير إجحاف ولا إسراف ، وهذا القدر الذى من نقص عنه او زاد عده البلغاء حائداً عن الجادة بقدر ما نقص أو زاد) . [1]

ورأى أن هذا هو الميزان الصحيح وأطلق عليه الإيجاز لانطباق حده عليه .

والشيخ دراز بهذه الرؤية يتفق مع من سبقه من العلماء فى إنكاره المساواة ، ورفضه لوقوعها فى القرآن الكريم ، ولكنه يختلف معهم فى جعله الفضيلة البيانية ، والإبداع الفنى فى أسلوب واحد ، اطمئن إلى تسميته بالإيجاز ، وما زاد عنه أو نقص عنه ، بعد عن البلاغة بقدر هذه الزيادة ، أو ذلك النقصان .

وهكذا وجدنا أن من هؤلاء العلماء من تلطف فى إنكار المساواة ، وأدرج أمثلتها فى سلك الإيجاز ، وأطلق عليها مصطلحاً خاصاً كابن الأثير والعلوى .

ومنهم من صرح بإنكارها ورفضها فى القرآن الكريم ، واعتبر ذلك إجحافاً بحق الذكر الحكيم إذ هى لمتعارف الأوساط ، كما انها لا تحمد فى باب البلاغة... وذلك كالسيوطى وابن عاشور

وقد وافقهما الشيخ دراز ولكن استبعد من طرائق التعبير البليغ – أيضاً – الإطناب ، وأدمج أمثلته تحت مصطلح الإيجاز، وللشيخ حجته القوية وأدلته الدامغة، ولكن يبقى للإطناب وصوره مكانته الفنية التى توارد العلماء على الإشادة بها ، وعدوه من البلاغة ، بل من أعلى طبقاتها ، بمن فيهم الشيخ دراز نفسه .

---

[1] النبأ العظيم ١٢٩.

ثالثاً : اختيار وترجيح :-

وضح من العرض السابق لآراء العلماء فى المساواة ، أن ثمة تبايناً كبيراً وخللاً فى ذلك التحديد .

ولعل نزوع السكاكى ومدرسته إلى الدقة والتحديد ، وولعهم بالضبط و التقسيم أوقعهم – أحياناً – فى شئ من الخلط والاضطراب ، مع ما فى هذا الضبط والتقسيم من فائدة لا تنكر .

فالألفاظ – عندهم – إما على قدر المعنى ، أو أقل منها ، أو زائدة عنها ، حسبما تقتضيه القسمة العقلية ، والنظرة المنطقية .

والتعبير فى الكلام البليغ ، والصياغة فى النظم العالى ، لا تقاس بهذه النظرة وإنما هناك تشكيل خاص ، وتأليف أخص ، يجعل منه نظماً عالياً يتفرد عن غيره من الكلام .

هذا وقد تراءى لى أن السكاكى إنما ذكر المساواة لكى يوضح بها الإيجاز والإطناب المقبولين ، لكن من حيث القبول وفصاحة الأساليب فليست عنده من المقبول ، وقد يرجح هذا عدم استشهاده عليها من القرآن الكريم ، وإنما الذى ذكرها طريقاً من طرائق التعبير الثلاثة واستشهد لها من القرآن هو صاحب التلخيص وشراحه .

على أية حال .. فقد كان قدح الذهن ، وانصراف الخاطر إلى ضبط القواعد، وتحديد الأقسام ، وتلمس الشواهد ، سبباً فى إدراج المساواة ضمن طرائق التعبير البليغة ، ومحاولة تلمس شواهد لها من النظم العالى ، ولم يكن هذا هو الخلل الأوحد فى هذا الباب ، فقد أصاب الطريقين الآخرين (الإيجاز والإطناب) .

أما الأول : فيتمثل فى استشهادهم للإخلال " بقول الحارث بن حلزة :

والعـــيش خيـــر فـــى ظـــلا ل النـــوك ممـــن عـــاش كـــدا

ولـيس فـى البيـت إخـلال بـالمعنى، ولا إلبـاس علـى السـامع ، بـل فيـه حـذف رائق، وتخليص للعبارة من الترهل ، وترويق لها عما يثقلها ، وتعويل على فهم وذكاء القارئ ، وهو ما يناسب طبيعة الشعر ، لا سيما شعراء هذه الطبقة .

ثمة شئ آخر هو أن المعنى الذى أشار إليه الشاعر من المعانى المعرقة فى الشعر ، المتواردة على ألسنة الشعراء ، حتى أصبح يقال لمن افتقر : " أدركتـه حرفـة الأدب " وللشعراء فى هذا المعنى نوادر وشوارد، كلها ينسجم مع هذا المعنى، ويعلل له ، ويمزجه بنوع من الخيال يقربه من الحقيقة .

إن ذكر المحذوف – وقد دل عليه المقام ، وعرف من توارد الشعراء على حقيقته – عبث ينأى عنه الكلام البليغ ، وسطحية لا تناسب الشعر رمز الإيجاز والخفاء .

وهذا ما حدا بالسيوطى أن يخالف هذا التوجه ، ويعد هذا البيت من " الاحتباك " البليغ ، إذ المقام يدل على المحذوف .[١]

ولم يسلم للبلاغيين مثال واحد للإخلال ، فشواهدهم جميعاً تندرج ضمن الإيجاز البليغ من مثل قول الشاعر :

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا[٢]

وقول الآخر :

أعـــاذل عاجـــل مـــا أشـــتهى أحـــب مـــن الأكثـــر الرائـــث [٣]

---

[١] شرح عقود الجمان ٦٧.

[٢] البيت لـ " عروة بن الورد " فى ديوانه.

[٣] البيت لعبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهزلى من شعراء العصر الأموى.

والبيتان يقال فيهما ما قيل فى سابقهما ، وهل تجد فرقاً بين هذا الحذف وبين الحذف الذى عده البلاغيون من الإيجاز البليغ فى قول الشاعر :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته فسرهم وأتيناهمْ على الهرم [١]

وقول الآخر :

أبينى أفى يمنى يديك جعلتنى فأفرح أم صيرتنى فى شمالك[٢]

أما الإطناب : فقد مثلوا للإيغال وهو أحد صور الإطناب بقوله تعالى :

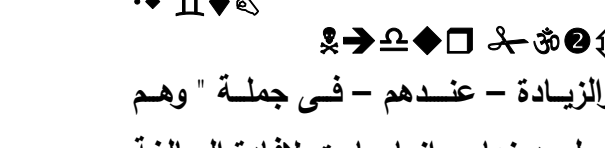

يس /٢١ والزيادة – عندهم – فى جملة " وهم مهتدون " لأن المقصود العام فى الاتباع يحصل بدونها ، وإنما جاءت لإفادة المبالغة فى الحث على الإيمان بالرسل .

والحق أنه ليس فى الآية زيادة ولا إيغال ، بل إن الجملة تتوقف الموعظة عليها .... يقول الرازى : الامتناع من الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين ، إما مغالاة الدليل فى طلب الأجر ، وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق، ولكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق . [٣]

هذا فضلاً عن أن سياق الآيات فى الموعظة ، وهذا يقتضى ذكر ما يرغب فى قبولها ، من ذكر الوصفين معاً ، مع تقديم نفى سؤال الأجر على الاهتداء الذى جاء بالجملة الاسمية ؛ لإفادة إثبات اهتدائهم ودوامه ، ثم إن الكلام لم يتم عند قوله

---

[١] البيت لـ "المتنبى " فى ديوانه.

[٢] البين لابن الدمينة فى ديوانه.

[٣] التفسير الكبير ٢٦/٥٥.

(وهم مهتدون) على ما يرى الخطيب ، بل إن السياق ممتد حتى قوله : يس / ٢٥.

وما ذكرته فى مثال الإيجاز ، وفى الإطناب يؤكد من أن سبب هذا الخلل فى التقعيد و الاستشهاد إنما هو تعميم المقاييس ، والرغبة فى كثرة التقسيم والتفريع ، ومحاولة تلمس شواهد لكل منها .

ثمة شئ آخر هو أنه ليس فى المساواة مناط للمزية ، ولا دليل على الفضيلة البيانية ، ولا برهان على الإبداع الفنى ، ثم هى لا تقع فى كلام البلغاء ، وأصحاب النظم العالى ، بل موقعها فى محادثات الناس ومتعارف الأوساط ، وهى لا تحمد فى باب البلاغة ولا تذم .

جاء فى تجريد البنانى : " أن المساواة تجرى فى عرف الأوساط ، الذين لا ينبهون لإدماج المعانى الكثيرة فى لفظ يسير ، وتكون فى مقام عدم فهم المخاطب للإيجاز، أو عدم تعلق الغرض بإدماج المعانى الكثيرة " .[1]

وبهذا لا يمكن أن تكون المساواة بهذا الحد موجودة فى الكلام البليغ ، ولا النظم العالى ، بل هى موجودة فى كلام العوام ، ومحادثات الدهماء التى لا يعبأ فيها بمراعاة آداب اللغة .

وهذا ما جعل صاحب الطراز يجرى المساواة على وجهين :

أحدهما : أن تكون مساواة مع اختصار وهو أن يتحرى البليغ فى تأدية معنى كلامه أوجز ما يكون من الألفاظ القليلة الأحرف الكثيرة المعانى التى يتعسر تحصيلها على من دونه فى البلاغة .

[1] تجريد البنانى على مختصر السعد ٨١/٢.

ثانيهمـا : أن يكـون المقصـود المسـاواة مـن غيـر تحـرٍ ولا طلـب اختصـار ، ويسمى المتعارف [١] وصنع نحوه صاحب تحرير التحبير .[٢]

واضح أن الوجه الأول – وهو المقصود – لا يفتـرق فـى حده ومفهومـه عن إيجاز القصر ، ولذا ترى العلوى يـذكر أن هذا الوجـه أدل علـى البلاغة ، وأقوى علـى تحصيل المراد ، كما أنك ترى أهل البلاغة متفاوتين فى ذلك ، فأعظمهم قدراً فيها من كان يمكنه تأدية مقصوده فى أخصر لفظ وأقله . [٣]

وقد مثل لها بأمثلـة تندرج عند التأمل تحت إيجاز القصر ، يقول فى قولـه تعـــــالى : ﴿ ⬗♊🕓✽❍⇳❍💣*"✍✂ ⬇⬈✎✂♦❽⊠♉ ⬀✍⊠♎ ⬗♊🕓✽❍⇳❍💣*"✍✂ •♐♋ ⬅♊🕓✽❍⇳❍💣*"✍✂ ⬗♒✌✍ ﴾ الــرحمن / ٦٠ إن تحتهـا فوائد غزيرة ونكت كثيرة ، مع قلة أحرفها ، ووجازة ألفاظها .[٤]

وقد رأينا المقياس الذى وضعه البلاغيون للمساواة وهو متعارف الأوساط، أو تأديـة أصل المراد ، وعلمنـا أن المقياسين يئـولان إلـى معنـى واحد لا يمكن أن يكـون أساساً للكلام البليغ ، ولا مقياساً للنظم العالى .

والـذى أدى بـالبلاغيين إلـى هـذا هـو أنهـم ظنـوا أن العبـارة التـى تـؤدى بهـا المعانى الأولية فى لسان العوام تقع دائماً بين الإطالة والاختصار .

وقـد فنـد الشـيخ / دراز هـذا الـزعم بمـا يسـقط هـذا الأسـلوب مـن الأسـاليب المعتبرة فى الكلام البليغ.[٥]

---

[١] الطراز ٣/٣٢٢، ٣٢٣.
[٢] تحرير التحبير ١٩٧.
[٣] ينظر : الطراز ٣/٣٢٣.
[٤] السابق نفسه.
[٥] النبأ العظيم : ١٢٨ ، ١٢٩.

وبعد هذا العرض السريع لرأى من تبنى قبول المساواة ، ومن رأى رفضها ومحاولة الاختيار والترجيح لأحد الرأيين ... فإنه لا مناص من القول برفض هذا الأسلوب ، وحصر طرق الكلام بين الإيجاز والإطناب ، لانعدام الضابط الدقيق الذى يحدد إطارها ، ويرسم حدودها ، فضلاً عن تدنى مرتبتها البيانية فى درج البيان أما شواهدها التى تمثل بها من قال بالمساواة فذلك ما يتم مناقشته فى المبحث القادم .

مُثُل من المساواة فى النظم العالى

رد وتــرجيح

ذكرنا أن نفراً – غير قليل – قد أثبت المساواة واسطة بين طرائق التعبير الثلاثة .

ولم يكن ذلك موضوع الخلل وحده وإنما كان ذلك أيضاً فى استشهادهم لها بنماذج من الكلام البليغ بل ومن النظم المعجز!!

وعلى هذا النهج المضطرب سار الدرس البلاغى إلى يومنا هذا .

ويتبدى موطن الخلل فى أن المساواة – عندهم – تجرى في محادثات الناس التى لا يعبا فيها بمراعاة آداب اللغة ٠٠٠٠ أو على حد تعبير السكاكى (متعارف الأوساط).

كما أنها لا تحمد فى باب البلاغة ؛ لعدم رعاية مقتضيات الأحوال على حد تعبير التفتازانى.

ومع هذه المنزلة المتدنية للمساواة فى درج البيان فقد وجدنا علماءنا يذكرون أمثلة لها من القران الكريم ومن عيون الشعر العربى الذى ينسب للفحول٠٠٠ مما يقتضى – على – رأيهم – إدراج هذا الشواهد ضمن تلك الدائرة الأقل بلاغة – على أحسن تقدير – وفى ذلك من الاحجاف بهذه الشواهد ما فيه

وسوف نتتبع هذه الشواهد التى ذكرها العلماء مثلا للمساواة لمناقشتهم فيها وبيان وجه الحق والصواب فيها

أولاً : من القران الكريم :

قال تعالى : ﴿ ﴾

فاطر / ٤٣ .

يعد الخطيب القزوينى أول من مثل بهذه الآية للمساواة ، بل هو أول من استشهد لها من القران الكريم .

فالسكاكى لم يمثل للمساواة بشئ إذ هى عنده غير مقبولة ، فذكرها لها من قبيل التقسيم فحسب .

والعجيب أن الخطيب قد سكت عن رأى السكاكى فى المساواة بأنها لا تحمد فى باب البلاغة ، وسكوته إقرار بصحة ذلك ، وذلك يستلزم إخراج الآية من دائرة البلاغة والبيان .

والأعجب .... موافقة صاحب المطول لكلام الخطيب القزوينى فى هذه الآية ومتابعته له فى هذا التمثيل ، وكذا شراح التلخيص ، لأن المعنى قد " أُدى بما يستحقه فى التركيب الأصلى ، والمقام يقتضى ذلك ، لأنه لا مقتضى للعدول عنه إلى الإيجاز والإطناب " .[١]

وعلى هذا النحو الذى ذكره القزوينى وتبعه فيه شراح التلخيص ، تحددت وجهة البحث البلاغى فى باب (الإيجاز والإطناب والمساواة) حتى صار جل من يكتب فى هذا الفن ، يدرج هذه الآية تحت باب (المساواة) بل قد يتطوع بعض الباحثين ويذكر أمثلة أخرى من الذكر الحكيم ، مقتدياً فى ذلك بصاحب التلخيص وشراحه وهو أمر فيه من البعد عن جادة الصواب قدر ما فى الآية من إعجاز وبيان هذا ولم تسلم دعوى الخطيب وتابعيه فى عد هذه الآية من المساواة من الأخذ والرد .

وعند تدبر هذه الآراء نجدهم قد اختلفوا حول هذه الآية بما لا يحسم المسالة حتى إن الآية قد تنازعتها طرائق الأسلوب الثلاثة .

---

[١] شروح التلخيص ١٨١/٣ ، وينظر المطول ٢٨٦.

فقد ذكروا أن الآية يمكن أن تعد من " إيجاز الحذف " ؛ لحذف المستثنى منه ، إذ التقدير : ولا يحيق المكر السيئ بأحد إلا بأهله . [١]

وأجيب بأن هذا الحذف لا يقدح فى عدها من المساواة ؛ لأن اعتبار الحذف فى ذلك لرعاية الإعراب ٠ أو على حد تعبير ابن يعقوب : اقتضاه أمر لفظى لا معنوى [٢] ويقصد به : ما لا يتوقف إفادة المعنى عليه .

إذن فهذا الحذف لا يفتقر إليه فى تأدية أصل المراد حتى إنه لو ذكر فى غير القرآن لكان تطويلاً يخرج بالكلام عن دائرة البلاغة .

وعليه فتقدير المحذوف محتاج إليه لتصحيح المعنى ، فضلا عن تأتى معنى القصر بدون " إلا " إذ يمكن أن يقال : إنما يحيق المكر السيئ بأهله ، ولا يحتاج حينئذ إلى تقدير.[٣]

وذكر بعضهم أن فى الآية إطناباً .... [٤] حيث ذكر السيئ بعد المكر مع أن المكر لا يكون إلا سيئاً ، واعترض عليه الدسوقى فى حاشيته بأن وصف المكر بالسيئ إيماءً إلى أن بعض المكر ليس سيئاً كما فى قوله تعالى : ﴿ ☎✂❐❐❷☒⧖◆✍◆❐ ☎✂❐❐❷☒⧖◆✍◆❐ ✦✐✍✂ ﴾ آل عمران/ ٥٤ وكذلك مكر المقاتل المجاهد فى حال التحرف والتحيز ﴿ ◆••✆❍ ✍❐❐🕮 ✍✌✍◆✌☞❍✆✍ ✍❁▫🇰〰❷🏔•◆✌✍✎ ✂🕘❾☞✠❷🏔•◆✌✍✎ ▫✆⑥■🖫✆❍ ▫✆⊙◆❐🖮 ﴾ الأنفال/ ١٦

يقول الدسوقى : وبهذا يندفع قول ابن السبكى فى العروس اعتراضاً على

---

[١] شروح التلخيص ١٨١/٣.

[٢] حاشية الدسوقى ١٨١/٣.

[٣] ينظر : مواهب الفتاح ١٨١/٣.

[٤] الشروح ١٨٠/٣، ١٨١.

المصنف أن الآية من قبيل الإطناب ؛ لأن السيئ زيادة ، إذ كل مكر لا يكون إلا سيئاً.[١]

ويرى صاحب عروس الأفراح أن فى الآية إطناباً بالنظر إلى الكلام السابق إذ هو تذييل لقوله تعالى " ومكر السيئ ".[٢]

وأجيب على هذا بأن من عده من المساواة ، لم ينظر إلى ما قبله ، بل نظر إليه فى ذاته .[٣]

وبالرغم من ضعف هذا الجواب ، لما فيه من تفتيت أجزاء الكلام الواحد وقطع لسياقه المتصل ، ونثر لعقده المنتظم = فإنه إذا نظر إليه فى ذاته فهو من القصر الذى هو نوع من الإيجاز وليس من المساواة .

وقد مثل الخطيب أيضاً بقوله تعالى :﴿ ✂⬧❶🚫❼◆❐ ❻◆🕮❐③⬀❁✹⬀③✂❓◆♌ ⇔⩛🚫❹⇳↖❐⬧▫ ✍◆🕐🚫☞🕐♦③✂◆↗☑❼🚫× ↖◆❁⬀🚫✹☹🖂○ ⬀🚷↙🕭⬀❁◆↖ ❼🚫× ☎✂❑→➲❑➔③⬧⑥ 🗐🚫✹☹🖂○ ■◆⑨🚫③❁✍ ■🚫❸⬀❷☒➘ 🕐 🗐﴾ الأنعام /٦٨

واعترض عليه بأن فيه حذف موصوف " الذين "وأجيب بما أجيب به فى الآية السابقة ، بأن كل حذف لا أثر له فى تأدية أصل المراد لا ينافى كونه مساواة وإلا لم يسلم مثال واحد للمساواة .[٤]

اختيار وترجيح :

---

[١] حاشية الدسوقى ١٨١/٣.

[٢] عروس ألأفراح ١٨٢/٣.

[٣] بغية الإيضاح ٣٣١/٢.

[٤] ينظر الإيضاح ٣٣١/٢ وشروح التلخيص ١٨١/٣.

بعد انتقاء بعض آراء البلاغيين وعرضها فى هذه الآية ، يتبين مدى اضطرابهم فى تحديد الأسلوب الذي بنيت عليه الآية الكريمة ، ولعلك لاحظت إصرار بعض شراح التلخيص على عد هذه الآية من المساواة ومحاولتهم دفع الإشكالات والاعتراضات التى أثيرت حول عدها من الإيجاز أو الإطناب .

ولاحظت– أيضاً – ما جاءت عليه هذه الردود من ضعف وعلى وجه لا يقنع الباحث فى هذا الفن.

وعند تدبر نظم الآية وسياقها يترجح أن الآية لا يمكن – أبداً – أن تدرج فى سلك المساواة ، بل لا دليل – ألبتة – على وقوع المساواة فى القرآن الكريم خاصة ، والنظم البليغ عامة .

أما يتعلق بنظم الآية فان قوله تعالى : " ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله " كلام جرى مجرى المثل.

جاء فى حاشية الشهاب عند هذه الآية : هو من إرسال المثل ، ونظيره من قول العرب : " من حفر لأخيه جباً ، وقع فيه منكباً ، وفى التوراة : من حفر مغواة وقع فيها .[1]

ولا يخفى على عاقل ، أن الأمثال عامة ، والقرآنية ، خاصة ، إنما تعتمد على الإيجاز ، ذلك لأن المثل من شأنه أن يحفظ ، ويستشهد به عند الحاجة ، فلا بد أن يكون خفيفاً على الألسنة ، ذا جمل قصيرة موحية معبراً عن قصة ، داعياً إلى عبرة ، فكان الإيجاز شرطاً فى صلاحيته لهذه المقاصد وغيرها.

ومن أجل أن يكون الكلام كالمثل ، ذكر لفظ المكر صريحا ، مع سبق ذكره كما عدل عن الإضمار إلى الإظهار فى قوله " بأهله " فكان يمكن أن يقال : ولا يحيق

[1] حاشية الشهاب ٢٣١/٧.

إلا بهم ، لأن المراد : أن مكر هؤلاء المنوه بهم يحيق بهم.

أقول :عدل النظم عن كل هذا الحذف إلى ما جاء عليه ، لإخراج المعنى مجرى الكلام المستقل ، إيماء إلى أن هذا الأمر سنة إلهية مطردة ، وفى ذلك ما فيه من إفادة وتأكيد إحاطة الله بهؤلاء الماكرين وقدرته عليهم.

وبهذا صارت الجملة مستقلة عما قبلها فى معناها ، جارية على الألسنة كما تجرى الأمثال التى فشا استعمالها.

وإذا تلمسنا وجوه الإيجاز فى الآية وجدناها واضحة جلية ، منها:

– جملة القصر ، ومعلوم أنه من صور الإيجاز ؛ إذ هو يقوم مقام جملتين جملة إثبات للمقصور وجملة نفيه عما سواه ، والقصر فن كثير الفوائد ، غزير الأسرار ومن هنا كان مناسبته لنظم الآية من حيث بناؤها على الإيجاز الذي تكثر فوائده وتتعدد أسراره .

جاء فى التحرير والتنوير : فالمساواة أن يقال : يحيق المكر السيئ بالماكرين دون غيرهم ، فما عدل عن ذلك إلى صيغة القصر ، فقد سلك طريق الإيجاز [1] وبالمقارنة بين هذين الأسلوبين اللذين ذكرهما الطاهر يبين الفرق جليا بين أسلوب المساواة الذى يقع فى محادثات العوام ، وبين نظم القرآن المعجز المبنى على الإيجاز.

ولا يخفى أن فى النفى والاستثناء فائدة الحصر ، بخلاف ما لو قيل : المكر السيئ يحيق بأهله ، فلا يفيد عدم الحيق بغير أهله.

وفى الآية حذف المضاف ، إذ التقدير ولا يحيق ضر المكر السيئ إلا بأهله وكذلك فى قوله (بأهله) لأنه عوض عن أن يقال : الذين تقلدوه . [2]

---

[1] التحرير والتنوير ٢٢/٣٣٦.

[2] السابق نفسه.

كما أن الآية قد جاءت من خلال ألفاظ ذات إشعاع ، وظلال وإيحاءات ودلالات ٠٠٠مما ينأى بها عن المساواة .

من ذلك قوله تعالى : (المكر السيئ) والتى تشير إلى صنيع هؤلاء القوم من نقض للعهد ، وحنث فى اليمين ، وفساد فى الأرض ، ونفور عن دعوة الله ، وفى التعبير القرآنى إيماء إلى إصرار هؤلاء القوم على تدبيرهم ضد الإسلام و نبيه، وأنه تدبير محكم ، ومكر مستمر ، وخبث متصل ذلك كما مكر سابقوهم ، فلحق بهم مكرهم ، وهذا ما يرشد إليه السياق : ﴿ 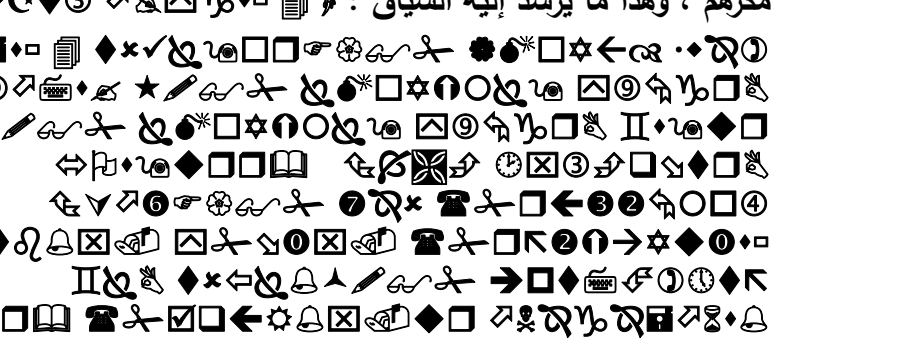 فاطر /٤٣، ٤٤ . فليس لهم بعد هذا إلا انتظار الإهلاك وهو سنة الأولين .

والقرآن لا يريد أن يسجل على هؤلاء الماكرين وحدهم هذا المسلك ، بل يضيف إليهم كل من سلك هذا المسلك المزرى المشين ، حتى تكون هذا الآية رادعاً لكل من تسول له نفسه أن يسلك هذا الطريق ، وهذا سمة الأمثال القرآنية ، تتسم بصيغة العموم .

ومن ذلك إيثار (يحيق) لدلالته على الإحاطة ، التى هى فوق اللحوق ، ففيه

من التحذير ما ليس فى قوله : " ولا يلحق أو ولا يصل " . [١]

هذا فضلاً على أنها لا تستعمل إلا فى نزول المكروه ، كما يرى العسكرى [٢] واستعمالات النظم القرآنى لهذا اللفظة يشهد لذلك . [٣]

وفى هذا الفرق المائز بين اللفظين ، وإيثار النظم للفظة الموحية المعبرة عن الغرض المرتبطة بالسياق ، دلالة على نفى المساواة عن الآية .

وعليه فقد ذهب ابن الأثير إلى أن التعبير بألفاظ مترادفة ، تماثل الألفاظ التى جاء عليها النظم ليس من قبيل المساواة .....

يقول : فإن قيل : كيف لا يمكن التعبير عن ألفاظ بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها ، وفى المترادف من الألفاظ ما هو دليل على خلاف ذلك ؟

قلت فى الجواب : ليس كل الألفاظ المترادفة يقوم بعضها مقام بعض ، ألا ترى أن لفظة (القصاص) لا يمكن التعبير عنها بما يقوم مقامها ، ولما عبر عنها بالقتل فى قول العرب : (القتل أنفى للقتل) ظهر الفرق بين ذلك وبين الآية فى قوله تعـــالى : ﴿ ❑◆➓♦⬧➔☠➷✗⚐❼ ✁✍♓⬂☽✇⬀⚙✍⬀⬂ ❍⬔➓◆❑⬜▤⮚ ﴾ البقرة / ١٧٩ والذي أردته ، إنما هو الكلام الذى لا يمكن التعبير عن ألفاظه ، بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها ، فإن كان كذلك ، وإلا كان داخلاً فى هذا القسم المشار إليه . [٤]

وفى قوله : " بأهله " أغنت فيه الإضافة عن تفصيل يتعذر ، كما أن فيه ما

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٣٤.

(٢) الفروق اللغوية ٢٥١.

(٣) المعجم المفهرس ٢٢١.

(٤) المثل السائر ٢/٢٤٠-٢٤٢.

ليس فى قول القائل : ولا يحيق المكر السيئ إلا بالماكر . [1]

[1] **التفسير الكبير ٣٤/٢٦.**

ثمة اعتراض ساقه شراح التلخيص على عد هذه الآية من الإيجاز ، حتى تسلم لهم شاهداً للمساواة ، هو أن الحذف فيها رعاية للقواعد النحوية ، وهو قول ضعيف لم يقم على ساق ولم تسنده حجه ، إذ لا يمكن عد ما اشتمل على حذف من المساواة ، وإلا اختلت المقاييس ، وتداخلت المصطلحات.

وإذا سلمنا أن الحذف – هنا – لأمر لفظى ، أو مراعاة للقواعد النحوية ، فهل يمكن بالضابط نفسه أن ندرج الآيات التى أوردوها شواهد للإيجاز ضمن المساواة؟

ذلك ما لا قائل به ، إذ يترتب عليه ألا يسلم شاهد للإيجاز ، فضلاً عن تداخل الحدود ، واختلاط المصطلحات.

وقد غفل السعد فى هذا الموضع – وهو صاحب اللفتات الذكية ، واللمحات الذوقية – حين ذكر أن الحذف فى الآية لا يخرجها عن المساواة ، لأن ذلك لاعتبار لفظى ، من غير أن يتوقف عليه تأدية أصل المراد ، حتى لو صرح بذلك لكان إطناباً ، بل ربما يكون تطويلا [1] ، وموضع الغفلة أن ذكر أصل المعنى ، لا يمكن أن يكون تطويلا ولا حشواً يخل بالأسلوب وينال من بلاغته ، وإذا كان فلم لم يذكره البلاغيون تحت صور الإطناب ؟

إذن .. فالآية لا يمكن إلا أن تندرج فى سلك الإيجاز ؛ لدلالتها على معان كثيرة ، فهى " تحث على كف الأذى عن جميع الناس ، بحذره عن جميع ما يؤدى إلى الأذى " . [2]

---

[1] المطول ٢٨٦.

[2] عروس الأفراح ١٨٣/٣.

لذا ذكرها العسكرى فى شواهد الإيجاز ، وبين أنه أفاد قوة إشعارهم بجنايتهم على أنفسهم ، كأن الذى وقع عليهم مكرهم نفسه ، لا عاقبته ، وفى ذلك توبيخ على المكروه وتنفير منه وقد جاءت على هذا النظم إيجازاً واختصاراً.[١]

هذا فضلاً عن دلالة الاستثناء على عدة معان ، واكتناز ألفاظ الآية لدلالات كثيرة من خلال إيحاءاتها ودلالاتها ، بحيث إذا أبدلت بغيرها لزم إما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة على ما رأى الخطابى عندما تحدث عن عمود البلاغة فى النظم القرآنى ، وعرفه أنه وضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص الأشكل به.[٢]

كل ذلك ينفى المساواة عن الآية ، وعن كل النظم المعجز ، إذ لكل لفظ موضعه وغرضه ومقامه الأليق به ، بخلاف المساواة التى تكون فى كلام الدهماء ، ومحادثات الناس التى لا يعبأ فيها بمراعاة آداب اللغة

ثانيا : **فى الشعر** :

فإنك كالليل الذي هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع[٣]

استشهد الخطيب القزوينى على المساواة بهذا البيت ، وتبعه فيه شراح التلخيص ، وأضاف صاحب عروس الأفراح بيتاً آخر ، رأى تحقق ضابط المساواة فيه ، استنباطا من كلام صاحب التلخيص .[٤]

---

(١) ينظر : كتاب الصناعتين ١٩٥.

(٢) بيان إعجاز القرآن ٢٩.

(٣) ديوان النابغة ٥٦.

(٤) الإيضاح مع البغية ٣٣١/٢ ، والشروح ١٨٢/٣.

وقبل مناقشة هذا الرأى ، تجدر الإشارة إلى أنه دارت حول البيت مناقشات وردود حول عد البيت من المساواة .

قيل : إن فى البيت إيجازاً بالحذف ، والمحذوف جواب الشرط ، إذ التقدير وان خلت أن المنتأى عنك واسع فأنت مدرك لى فيه.[١]

وأضاف صاحب عروس الأفراح حذفاً آخر فى البيت هو خبر إن ، خلافا لمن ذهب الى أن الجار والمجرور نفسه هو الخبر.[٢]

وأجيب عن ذلك بأن اعتبار هذا الحذف أمر لفظى ، لا يتوقف إفادة المعنى عليه .. وقد مضى مناقشة هذا الجواب عند آية فاطر السابقة .

وقيل: إن فيه إطناباً ، بذكر دليل الجواب ، إذ هو زائد على مدلول الكلام وان الأصل الإتيان بالشرط وجوابه .[٣]

ولك أن تسأل : كيف يكون ذكر دليل الجواب المحذوف إطنابا؟!

وإذا كان فلم لم يذكره البلاغيون ؟ وتحت أى صورة من صوره يمكن أن يكون ؟

إن أصل المعنى يتطلب الشرط وجوابه عند ذكرهما ، فكيف إذا حذف الجواب أيكون ذكر الدليل تطويلاً وحشواً ، أو إطناباً ؟

إن من المقرر عند أهل العلم أن حذف أحد أركان الكلام دون قرينه أو دليل يعد إلغازاً أو تعمية ، ينأى به عن البلاغة والبيان.

إن هذه المناقشات والردود ، لتدلنا على عدم ضبط القاعدة وثباتها عند

---

(١) بناءً على مذهب البصريين من أن الجواب لا يتقدم.

(٢) عروس الأفراح ١٨٢/٣.

(٣) شروح التلخيص ١٨٢/٣.

النقاش، وعليه عدم التسليم بإدراجه تحت سلك المساواة ، بل إنها لا تقع فى النظم العالى ، خاصة فحول الشعراء ، والنابغة– لاشك – فى طليعتهم.

ونفى المساواة عن الشعر لاسيما عند فحول الشعراء يتلاقى مع طبيعة الشعر؛ لبنائه على الإيجاز وتكثيف المعانى ، فيكون البيت فيه متسع لمعانٍ لو كانت نثرا لجاءت فى جمل كثيرة ، لذا اتخذ أكثر الشعراء من الإيجاز منهجاً فى نسج أشعارهم؛ لتكون أوقع فى النفس وأرحب فى الخيال .

فالشعر قائم على الإيجاز ، بل هو خير مثال للإيجاز ، إذ يقوم على تكثيف المعانى من خلال مفردات لغويه قابلة للتأويل من أكثر من وجه.[١]

وهذه الطبيعة الخاصة بالشعر تنأى به عن المساواة ، لعدم مناسبتها لتلك الخاصية الشعرية ، ولهذا الطابع المتميز الذى يجعل من بعض الكلام شعراً دون غيره .

جاء فى ديوان المعانى : والإيجاز بجميع الشعر أليق ، وبجميع الرسائل والخطب ، وقد يكون من الرسائل والخطب ما يكون فيه الإيجاز عياً ، ولا أعرفه إلا بلاغة فى جميع الشعر ، لأن سبيل الشعر أن يكون كلامه كالوحى ومعانيه كالسحر مع قربها من الفهم " [٢] والعجيب أن العسكري قد مثل لهذه النظرة المثال فى الشعر ببيت النابغة هذا ..... ولا أجد أجمل من تعبير العسكرى فى وصف طبيعة الشعر ، وبنائه على الإيجاز والوحى والرمز ، إلا نص عبد القاهر فى السياق نفسه حيث قرر : أنه لابد لمتصفح الشعر أن يكون ذا ذوق شفاف ، وإحساس عال حتى يدرك (وحى طبع الشعر ، وخفى حركته التى هى كالهمس ، وكمسرى النفس فى النفس) .

---

[١] فى تراثنا النقدى نماذج ثرية فى هذا المجال.

[٢] ديوان المعانى ٤٣٣ للعسكرى.

(١)

وهنا أجد لزاما الإشارة الى أن وحى طبع الشعر وغموضه ، ورمزه وإيماءه عند عبدالقاهر ، يتنافى – تماما – مع مقاييس الحداثيين فى كلامهم عن الرمزية والغموض فى الشعر ، وقد ميز الشيخ بينهما ووضع حداً فاصلاً ومثل لكليهما فى " أسرار البلاغه " . (٢)

وإذا اقتربنا من موضوع الشاهد وجدنا معناه الذى ذكروه لا يفى بغرض الشاعر ولا بإيحاءات ألفاظه ودلالتها ، بما ينأى به عن وادى المساواة تماما ، لاسيما إذا علمنا أن عبدالقاهر قد استشهد به على وحى الشعر وخفائه ، وعلى التباين بين الغموض الذى يشرف المعنى ويزيد من فضله كهذا البيت ، وبين التعقيد والتعسف الذى يؤدى إلى الغموض المزرى ، والتعسف المشين.(٣)

إن النابغة أراد أن يشبه الملك فى حالة سخطه بليل فى عمومه الأماكن وبلوغه كل موطن فى أسرع لحظة بحيث لا يفلت منه أحد ؛ لسعة ملكه وبسطة يده.

وهذا المعنى قد توارد عليه الشعراء ، ولكن فى إيثار النابغة لعنصر " الليل " معنى نفسى دقيق ، يصور نفسه الهلعة المرعوبة من وعيد النعمان ، وأنه مدركه لا محالة ، فهو كالليل لا يفلت منه شئ ، وتزداد فيه المخاوف والأهوال.

إن هذا المعنى النفسى – وغيره– سيلوح للقارئ إذا ألحق البيت بسياقه فقبل بيت الشاهد :

---

(١) أسرار البلاغة ٣٠٦.

(٢) السابق ١٤٠ وما بعدها.

(٣) أسرار البلاغة ٣٠٦.

وعيد أبي قابوس فى غير كنهه أتانى ودونى راكس فالضواجع
فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم ناقع
يسهد من ليل التمام سليمها لحلى النساء فى يديه قعاقع
تناذرها الراقون من سمها تطلق طوراً وطوراً تراجع

وبعده :

خطا طيف حجن فى حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع

فالليل بما يمثله من وحشة وهلع ، وظلام وسكون ، أقرب الى تجسيد رهبة الشاعر وقلقه ، من ذلك القدر المحتوم الذى أشار إليه فى الأبيات السابقة ، لاسيما صورة (الضئيلة من الرقش– وصورة الخطاطيف التى هى فى حبال متينة)

الشاعر اختزل هذه الصور المرعبة المخيفة فى كلمة " الليل " بما أثارت من معان ومضامين ، وبما يجعل إبدالها بمرادف لها ، أو لفظ مساو لها ، إفساد للمعنى والتواء عن غرض الشاعر ، وانفصام عن صورته وأحاسيسه.

وقد أدرك نقادنا هذا المعنى النفسى الدقيق فى بيت النابغة ، ومحصلة أقوالهم تنأى بالبيت من أن يدرج فى سلك المساواة .

جاء فى عيار الشعر(وإنما قال كالليل الذى هو مدركى ، ولم يقل : كالصبح؛ لأنه وصفه فى حال سخطه ، فشبهه بالليل وهوله ، فهى كلمه جامعه لمعان كثيرة " [1].

والجملة الأخيرة التى تدل على أن كلمة " الليل " ذات إيحاءات دقيقة ودلالات دفينة .....هى موضع الشاهد .

---

[1] عيار الشعر ١٧.

وجاء فى أسرار البلاغة : (إن النهار بمنزلة الليل فى وصوله إلى كل مكان، فما من موضوع من الأرض إلا ويدركه كل واحد منهما ، فكما أن الكائن فى النهار لا يمكنه أن يصير فى مكان لا يكون به ليل ، كذلك الكائن بالليل لا يجد موضعاً لا يلحقه فيه نهار ، فاختصاص الليل دليل على أنه قد روى فى نفسه ، فلما علم أن حالة إدراكه وقد هرب منه حالة سخط ، رأى التمثيل بالليل أولى ، ويمكن أن يزاد فى نصرته بقوله :

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الإشراق فى كل بلد [١]

وذاك أنه قصد ههنا نفس ما قصده النابغة فى تعميق الأقطار ، والوصول الى كل مكان ، إلا أن النعمة لما كانت تسر وتؤنس ، أخذ المثل لها من الشمس ، ولو أنه ضرب المثل لوصول النعمة الى أقصى البلاد ، وانتشارها فى العباد ، بالليل ووصوله إلى كل بلد ، وبلوغه كل أحد لكان قد أخطا خطا فاحشاً " [٢]

اقرأ هذا النص لترى حس الناقد البصير ، بالحالة النفسية لكل شاعر ، متى يستخدم الليل ومتى يأتى بلفظ مساو له ، تبعاً لإحساس النفس ، والسياق الذى يلائمه٠٠٠٠٠وفى هذا التفاوت النفسى وملاءمة كل حالة للفظ غير الآخر ما يدفع القول بالمساواة فى البيت .

بل إن بعض شراح التلخيص الذين أدرجوا البيت ضمن شواهد المساواة ، متابعة للقزوينى قد لمحوا هذا المعنى.[٣]

---

[١] للعباس بن الأحنف فى ديوانه ١٠٨.

[٢] أسرار البلاغة ٢٥٥.

[٣] يراجع حاشية الدسوقى ١٨٢/٣.

ثم إن إبداع الشاعر ودقته قد بدا فى إيثاره أداة التشبيه ، ولو ترك النص عليها لانعكس الأمر ، وانقلب المدح هجاء ، ثم ذكر الوجه (مدركى) واختزال بقيته واختفائه وراء ضبابية الليل ، وحذف جواب الشرط.... كل ذلك يجعل الصورة خفية ظاهرة ، قريبة بعيدة ، وذلك هو جمال الفن وسحره ، وإيحاؤه وخياله.

وقد أجمع العلماء والنقاد – قديما وحديثا – على أن الإيجاز أقوي أثراً فى النفس من التصريح ، وأن المعنى الذى ينتهى الى السامع بعد مجاهدة النفس وكد الخاطر، يكون أوقع فى النفس وأعظم أثرا فيها.[١]

وهكذا نرى أن هذا البيت على قصره ووجازته ، قد أثار هذه المعانى النابضة ، واستثار هؤلاء النقاد على كثرتهم وتنوع مناهجهم.

هذا بالنسبة للبيت ، أما قائله فقد شهر بالإيجاز واختزال المعانى حتى عد ذلك من خواص شعره ، وسمت بيانه ، الذى ينبئ عنه ويدل عليه

قال أبو ذكوان : ما رأيت أعلم بالشعر منه ، ولو أراد كاتب بليغ أن ينثر من المعانى ما نظمه النابغة ما جاء به إلا فى أضعاف كلامه.[٢]

وبدا ذلك أكثر فى بيته هذا ، حتى قيل عنه : انه أبرع بيت قيل فى المديح ، واستنكر الاصمعى أن يأتى شاعر بمثله ولو كان من الفحول.[٣]

بل إن النابغة–نفسه– كان يرى أن هذا البيت واسطة العقد فى شعره

فقد قال لحسان فى مناظرته المشهورة : إنك لا تحسن أن تقول مثل قولى : فإنك كالليل .... البيت .

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ١٣٩ ، والبناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر ٣٢.

(٢) ديوان المعانى ٢٠.

(٣) السابق نفسه.

لذا استلهم كثير من شعراء هذا المعنى الذى ابتكره النابغة ، واستوحاه من حالته النفسية الخائفة المذعورة ، وألبسه تلك الصياغة الموجزة الموحية ، وإن كان كل شاعر قد كساه ضروباً من الخيال لا تجدها عند الآخر.[١]

ولعل أدق هؤلاء الشعراء حساً هو البحترى لأنه لمح تلك الإشارات الدفينة .. يقول :

عذيرى من الأيام رنقن مشربى ولقيننى نحساً من الطير أشأما

وأكسبننى سخط امرئ بت موهنا أرى سخطه ليلاً مع الليل مظلماً[٢]

يقول العسكرى : وما سلك أحد طريقته هذه فأحسن فيها كإحسان البحترى[٣]

وقد علق عليه ابن ناقيا بقوله : وقد نظر فى هذا البيت نظراً خفياً إلى قول النابغة فى استعطاف النعمان : فإنك كالليل ... البيت ، فشبهه بالليل من أجل سخطه أو غضبه ، ونقل البحترى تشبيهه إلى وصف السخط وجعل ذلك موجوداً فى الحقيقة عنده.[٤]

وإنما استحق بيت النابغة هذه الفضيلة البيانية ، لما فيه من وجازة للفظ وتكثيف للمعنى ، وإيحاء نفسى دقيق ، وتعبير صادق عن نفسية صاحبه المضطربة المذعورة .. ذلك وغيره جعل البيت أقرب للمثل السائر ، والأدب الخالد الذى يستلهمه الشعراء فى أى زمان وفى كل مكان ، وهذا – بلا شك – لا يتأتى بلفظ مساو لمراد الشاعر ، ولو حاولنا ذلك كنا قد ذكرنا مجمل المعنى ، وأغفلنا صورته وسمته

---

[١] ينظر : تحرير التحبير ٤٨٦ ، ٤٨٧.

[٢] ديوان البحترى ١٩٨/٢.

[٣] ديوان المعانى ٢١١ .

[٤] الجمان فى تشبيهات القرآن ١١٩.

وإحساسه ، فخرج الأمر عن دائرة الشعر ، فهل يحسن بعد هذا أن يقال إن البيت من المساواة ، وهى على ما عرفنا فى درج البيان ؟

*****

أما البيت الآخر الذى استشهد به شراح التلخيص على المساواة ، فهو :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح[1]

ولم يذكر القزوينى هذا الشاهد ، وإنما ذكره صاحب عروس الأفراح استنباطاً من كلام القزوينى . [2]

وقد ذكر هذا البيت كثير من العلماء ، لعل أولهم ابن قتيبة حينما مثل به للشعر الذى حسن لفظه ، وقل معناه ، وهو الضرب الثانى من أقسام الشعر الأربعة عنده . [3]

وقد كان البيت من أكثر الشواهد نصيباً فى تناول النقاد وعلماء البلاغة بحيث يمكن القول : إنه ما من ناقد تناول اللفظ والمعنى إلا وقد ذكر هذا البيت موافقاً لابن قتيبية أو مخالفاً له .

وتتبع هذه الآراء يخرج بالبحث عن وجهته ، ولذا فسوف نرصد من الآراء ما يفيدنا من حيث تحقق مفهوم المساواة فى البيت من عدمه .

ولعل الذى أغرى من أدرج البيت فى سلك المساواة هو نثر ابن قتيبة لبيت الشاهد وسابقيه ، فنراه يقول :

" وهذه الألفاظ – كما ترى – أحسن شئ مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن نظرت

---

(1) البيت لكثير عزة ، وقيل لابن الطثرية ، وقيل لعقبة بن كعب بن زهير.

(2) عروس الأفراح ٣/١٨٥.

(3) الشعر والشعراء ١/٧٠.

إلى ما تحتها من المعنى وجدته ، ولما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح ، ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح . [١]

ويأتى ابن طباطبا فيتكئ على سابقه ، بل ويتقدم خطوة ، حينما يحكم على البيت بأنه من وادى المساواة ، لأن هذا المعنى المستوفى على قدر مراد الشاعر.[٢]

وما ذكره هذان الناقدان ظل هو الحكم الموجه لمعظم النقاد بعدهما ، فلا يكاد يخلو كتاب من كتب النقد من الإشارة إلى خلو هذه الأبيات من المعانى الشريفة بما يبعدها عن الإيجاز البليغ ، والإيحاء الشعرى ... على نحو ما ذكره قدامة [٣] ، والعسكرى [٤] ، والباقلانى [٥] ..... وغيرهم .

واضح أن هؤلاء النقاد قد غفلوا عن تبين أسرار الجمال الأدبى فى أبيات كثير ، ولم يروا فيها إلا المعانى المعتادة الظاهرة ، دون أن ينتبهوا إلى ما فيها من عاطفة صادقة ، وخيال جميل ، ذلك لأن المسألة فى الشعر ليست مجرد عملية تشكيل لمجموعة من الألفاظ ، شأن الكلام العادى ، بل إن هناك طابعاً خاصاً لهذا التشكيل يجعل من الكلام شعراً دون غيره من ضروب الكلام .

---

[١] الشعر والشعراء ١/٧٠.

[٢] عيار الشعر ٨٤.

[٣] نقد الشعر ٢٨.

[٤] كتاب الصناعتين ٥٩.

[٥] إعجاز القرآن ٢٠٨.

ثم إن الكلمات فى الاستعمال الشعرى ليست إلا مجرد أدوات تمثل الأشياء ، وليست الصورة التى تتكون من هذه الكلمات إلا صورة تعبيرية وليست صورة مشابهة [١] ، ثم إن الدلالة المعنوية التى تحدث عنها هؤلاء النقاد ، هى عنصر من عناصر العمل الأدبى ، وحين نحكم على قيمة العمل الأدبى من خلال العبارة ، لا يجوز أن نكتفى بدلالتها المعنوية ، فهى عنصر واحد من عناصر دلالتها ، فلا بد أن نضم إليها عنصرى الإيقاع والظلال ، فهى فى مجموعها تدل على القيمة الكاملة لهذا العمل .

وكثيراً ما تكون الدلالة المعنوية هى أصغر عنصر فى العمل الأدبى ، فإذا نظرنا إليها وحدها لم نجد إلا عملاً ضئيلاً قيمته ضئيلة [٢] ، كما صنع ابن قتيبية ومن تبعه فى نقد هذه الأبيات .

وما غفل عنه هؤلاء النقاد ، فطن له الشيخ عبدالقاهر ، وقد كان ذا حس مرهف ، وذوق عال ، ما هيأه للفصل بين الجمال الخفى ، والعيب الخفى وهما أساس عمل الناقد .

تناول عبدالقاهر هذه الأبيات وأشار إلى خفى معانيها ، وجودة سبكها ووحى ألفاظها .. وذلك فى موطن رده على من يجعل الاستحسان فى اللفظ دون المعنى .

وبتأمل تحليل الشيخ عبدالقاهر ندرك أن الأبيات لا يمكن أن تندرج ضمن المساواة ، لأن مسألة أن تكون الألفاظ على قدر المعانى عملية منطقية بعيدة عن روح الشعر ورمزه وإيحائه .

كما أننا لو سلكنا هذا المنهج الذى سلكه ابن قتيبة ومن تبعه من نقادنا

---

[١] التفسير النفسى للأدب ٥٠.

[٢] النقد الأدبى أصوله ومناهجه ٨٤.

الأعلام فى تحليل الشعر لم يسلم بيت – مهما كان بيانه وبلاغته – من هذا العيب الفضفاض – إن صح التعبير –.

هذا وقد يكون من الإنصاف الإشارة إلى أن عبدالقاهر قد تأثر فى نقده لهذه الأبيات بالعلامة ابن جنى ، حيث ذكر هذه الأبيات فى باب الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعنى.[١]

وهو يرى أن الأبيات مليئة بالمعانى الحسان ، وما فيها من ألفاظ رائعة ، إنما جاء خدمة لتلك المعانى الحسنة ، فالقول – إذن – بأنها خالية من المعنى غفلة وفساد ذوق ... يقول : " ولا أرى ما رآه القوم منه ، وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر، وخفاء غرض الناطق " .

ويرى أن معنى الأبيات أشد تقدما من ألفاظها ، وإن عذب موقع تلك الألفاظ، ولعل ذلك يرجع إلى ذلك الوحى الخفى فى كلمة " أطراف الأحاديث " وإلى تلك الاستعارة اللطيفة فى : " وسالت الأباطح " ذلك أن : " فى ذكر أطراف الأحاديث وحياً خفياً ، ورمزاً حلواً ، ألا ترى أنه يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيمون من التعريض والتلويح ، والإيماء دون التصريح، وذلك أحلى وأدمث ، وأغزل وأنسب من أن تكون مشافهة وكشفاً ومصارحة وجهراً، وإذا كان كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم ، وأشد تقدماً فى نفوسهم من لفظهما وإن عذب موقعها وأنق له مستمعه ". [٢]

---

[١] الخصائص ٢١٨/١ ، ٢٢٠.

[٢] السابق نفسه .

ثم يشير إلى جمال الاستعارة بقوله : وفى قوله : (وسالت بأعناق المطى الأباطح) من الفصاحة ما لا خفاء به والأمر فى هذا أسير وأعرف وأشهر [١] .

ومع هذا التحليل الفائق لابن جنى ، وتأكيده على أن للشعر وحياً ورمزاً ، مما ينأى بالأبيات عن وادى المساواة ... ، إلا أن عبدالقاهر كان أدق تحليلاً وأكثر تفصيلاً فى تحديد مواطن الجمال من كل سابقيه بمن فيهم ابن جنى .

وأول ما يلقانا فى تحليل عبدالقاهر هو أن موطن المزية فى الأبيات يرجع إلى الإيجاز لا إلى المساواة كما زعم بعضهم .

– حيث عبر " عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها ، من طريق أمكنة أن تقصر معه اللفظ ، وهو طريقة العموم ".[٢]

– نقل الشاعر أحاسيسه ومشاعره من خلال صور أدبية وأخيلة رائقة ، فكنى بمسح أركان الكعبة عن الانتهاء من مناسك الحج ، ونبه بقوله : ومسح بالأركان من هو ماسح " على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر " .[٣]

– وقف عند إيحاء كلمة (أطراف) وما توحى به من (الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر ، من التصرف فى فنون القول وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتظرفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيحاء .....) . [٤]

وهو تحليل رائع لدلالة هذه الكلمة على حال هؤلاء المسافرين وأحوالهم النفسية .

---

[١] الخصائص ٢١٨/١ ، ٢٢٠.

[٢] أسرار البلاغة ٢٢.

[٣] السابق نفسه.

[٤] السابق ٢٣.

– وقف عند الاستعارة فى (سالت الأباطح) وكيف أنها وقعت موقعها ولاءمت سياقها ، لأنه يريد أن يصف سرعة السير فى حال العودة للمنازل فجعل " سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح ، وكان فى ذلك ما يؤكد ما قبله لأن الظهور إذا كانت وطيئة وكان سيرها السير السهل السريع ، زاد ذلك فى نشاط الركبان ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيباً " .[١]

– بين دلالة أجزاء النظم ، وفضل كلمة " أعناق " ، حيث إن (السرعة والبطء يظهران غالباً فى أعناقها ، ويبين أمرهما من هواديها وصدورها " [٢] ، فالتعبير بالأعناق جاء لتكملة صورة سلاسة السير وسرعته ، وكأن المرح والنشاط قد فاض بالأصحاب والخلان ، حتى عم الإبل والركبان .

– وبعد هذا التحليل الرائع من عبد القاهر ، الذى استنطق به مكنونات الألفاظ ، واستوحى مدلولاتها ، يمكننا أن نقرر– فى اطمئنان – أن طريقة النقاد الذين حكموا على الأبيات بأن ليس وراءها كبير معنى ، أو أنها من المساواة ، هى طريقة فيها غفلة عن طبيعة العمل الأدبى ، وإيحاء العمل الشعرى ، كما أنها طريقة غير مأمونة " لأنها تخرج من الحساب ذلك التناسق التعبيرى الخاص ، وذلك الإيقاع الناشئ من التناسق ، تلك الصور التى يشعها التعبير ، ولا تبقى سوى المعنى الذهنى العام ، وهو عنصر واحد من عناصر كثيرة تؤلف الدلالة الكاملة للتعبير الأدبى [٣]

وثمة فارق بين المعنى الذهنى المجرد ، وبين العمل الشعرى المعبر ، ولكن

---

[١] أسرار البلاغة ٢٢.

[٢] السابق نفسه.

[٣] النقد الأدبى أصوله ومناهجه ٤٨.

ابن قتيبة ومن تبعه لا يعدون من الشعر ذا معنى إلا إذا اشتمل على حكمة أو مثل أو معنى أخلاقى ، أما ما عدا هذا من مجرد التصوير لحالة نفسية أو التعبير عن موقف نفسى أو إنسانى فلا يعد عنده معنى ، كما صنع فى بيت الشاهد واتهامه له بالعجز والقصور .

وقد بان من خلال رأى عبدالقاهر ومن قبله ابن جنى ضعف هذا الرأى ، وافتقاده العمق فى التحليل ، وغياب الرؤية النقدية الفاحصة ، التى تناسب طبيعة الشعر فضلاً عن الخصام مع المذاهب النقدية الحديثة .

وقد ذكر بعض العلماء [١] – خلا شراح التلخيص – بعض الأبيات الأخرى التى أدرجوها ضمن المساواة ، وكان مما أوردوه :

قول زهير [٢] :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وقول طرفة [٣] :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقول أبى ذؤيب [٤]:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وهذه الأبيات – جميعها – يمكن إرجاعها إلى الإيجاز أو إلى الإطناب فعلى سبيل المثال نجد فى الشطر الأول من بيت طرفة إيجاز بحذف الجار والمجرور ،

---

[١] ينظر : سر الفصاحة ٢٠٩ ٢١٠ . وتحرير التحبير ١٩٩.

[٢] ديوان زهير ١١١.

[٣] ديوان طرفه ٤١.

[٤] لأبى ذؤيب فى ديوانه.

والتقدير : ما كنت جاهلاً به .

كما أنه لا يخفى عليك الاعتراض بين الشرط وجوابه فى بيت زهير ، وهو من صور الإطناب ، وكذلك حذف الجواب فى بيت أبى ذؤيب .

دع هذا ... وتأمل وجازة الأبيات وصياغتها ، واختزال المعانى وتكثيفها ، تجد كل بيت منها ملهماً فى معناه ، معجباً فى صياغته ، متدفقاً فى إحساسه ، حتى صار مثلاً سائراً ، وأدباً خالداً ، وشعراً رقراقاً صافياً .

راجع بيت أبى ذؤيب تجده يريد أن يقول : إن نفس الإنسان ترغب دائماً فى الكثير ، ورغباتها لا حدود لها ، ولكن للإنسان مقدرة على التحكم فى أهوائه ونزعاته ، وله السيطرة على إرادته من خير أو شر ، صلاح أو فساد ... فإن كبح جماحها انقادت واستسلمت وخضعت لقدرته وإرادته ، وإن أطلق لها العنان شردت منه وأفلتت ولم يستطع عليها السيطرة إلى غير ذلك من المعانى الدفينة وراء هذه الصياغة الشعرية الموجزة الصافية .

ولذلك مثل به ابن قتيبة لذلك الضرب من الشعر الذى حسن لفظه وجاد معناه . [1]

كما عد البيت – لوجازة ألفاظه ، وثراء معانيه – مصدر إلهام لكثير من الشعراء الذين ينظمون فى السلوك .

فنجد أحدهم يقول : [2]

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

---

[1] الشعر والشعراء ١/٧٠.

[2] ديوان البوصيرى ٢٣٩.

ويقول آخر : [1]

تطغى إذا مكنت من لذة وهوى طغى الجياد إذا عضت على الشكم

ويقول آخر : [2]

والـنفس إمـارة بالسـوء إن جمحـت رمتـك فـى حمـاة أو مـازق وخـم

كالخيـل إن روضـت سـارت بصـاحبها هوناً وإن أهملت بـالغير تصطدم

بل قد حظى بيت أبى ذؤيب بمن شطره من الشعراء ، لأنه يحمل من المعانى ما يمكن أن يجئ فى أبيات عدة .

مثل قول الشاعر : [3]

والـنفس راغبـة إذا رغبتهـا فاجعل هـواها للـذى لـك يشـفع

لـو أعطيـت كنـزاً لقالـت ثانيـاً وإذا تـرد إلـى قليـل تقنـع

إن القناعـة مثـل ثـوب سـاتر لا سـتر يبقـى إن فـؤادك يطـمع

وهكذا كل الأبيات التى ذكرت ضمن أسلوب المساواة ، نراها عند التحقيق لا تندرج ضمن هذا الأسلوب ؛ لبنائها على الإيجاز والإيحاء ، والرمز والخفاء ، مما يتنافى مع طبيعة أسلوب المساواة .

ثالثاً : الحديث الشريف :

لـم يمثـل الخطيـب ومـن تبعـه مـن شـراح التلخـيص ، ولا أحـد ممـن قـبلهم

---

[1] تهج البردة ٥٢ أحمد شوقى.

[2] نسج البردة ٧ عبدالله الهدار.

[3] ديوان الجعفرى ٣/ ٤٩٤.

للمساواة بمثال من الحديث الشريف ، كما صنعوا ذلك فى القرآن الكريم والشعر .

والذى صنع ذلك إنما هو بعض الباحثين فى عصرنا [١] ، ولذلك أرجأت مناقشة هذا القسم عن سابقه ، كما أننا لا نطيل فى مناقشته كما أطلنا فى سابقيه .

وقد أوردت كتب البلاغة للمساواة شاهدين من كلام رسول الله – ﷺ– أولهما : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " [٢] ، وثانيهما : إن الحلال بين والحرام بين ..... الحديث " . [٣]

قالوا : إن عبارات تلك الشواهد على قدر معانيها لا زيادة فيها ولا نقصان بحيث لو حذفت لفظاً منها اختل المعنى ، لعدم وجود قرينة تدل عليه .

ولا يخفى على متأمل أن هذا تأويل بعيد ، وتوجه غريب ، لأن الحديثين الشريفين لا يمكن أن يندرجا إلا تحت سلك الإيجاز ، لتضمنهما لمعان كثيرة غزيرة مع قلة ألفاظهما .

وقد كان ذلك سمت كلامه – ﷺ– يجمع بين تمام الفائدة وكمالها ، ووجازة اللغة واقتصادها مع البعد التام عن الغموض ... وهو ما لا يوجد فى أى نموذج بشرى .

فقد كان –ﷺ– يؤثر الإيجاز على غيره من ضروب الأداء فى الكلام تأسياً بالقرآن ، يشهد على ذلك قوله لجرير : إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف "

---

[١] تجد ذلك فى جل المؤلفات فى هذا العلم ، ينظر على سبيل المثال : علم المعانى ٥٢٩ د/ بسيونى فيود، علم المعانى ١٥٨ د/ رفعت السودانى.

[٢] رواه الترمذى فى سننه فى كتاب صفة القيامة ٥٥٧/٤ رقم ٢٥١٨.

[٣] رواه البخارى كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه ، ومسلم باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٦٩٧/١ ، ٦٩٨.

[١] ، وكان يصف الكلام الموجز بأنه ذروة سنام البلاغة . [٢]

وبالجملة فقد كان كلامه – ﷺ– على ما وصفه الجاحظ : الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ونزه هن التكلف . [٣]

وقد جعل العقاد سمة الإيجاز فى كلامه من أقوى ملامح الإبداع فى البيان النبوى فيقول : إن الإبلاغ – أقوى الإبلاغ – فى كلام النبى هو اجتماع المعانى الكبار فى الكلمات القصار ، بل اجتماع العلوم الوافية فى بضع كلمات وقد بسطها الشارحون فى مجلدات [٤]

ثمة شئ آخر ينأى بهذين الحديثين من ضمهما فى سلك المساواة ، هو أن العلماء قد أدرجوهما ضمن ما عرف بـ (جوامع الكلم) ، وهى أقوال ذات ألفاظ قليلة ، ومعانٍ كثيرة ، بلغت الغاية فى الشكل والمضمون بحيث لا يستطيع أحد أن يعبر عن معانيها ومضامينها بلفظ أقل .

وقد أفرد بعض العلماء لـ (جوامع الكلم) مصنفات ومؤلفات ، عد ابن رجب الحنبلى عدداً منهم [٥] ، وجلهم قد ذكر هذين الحديثين فى تلك الجوامع ، وإذا كان الإيجاز هو الطابع العام ، والسمت المائز ، لكلامه –ﷺ– فإنه فى " جوامع الكلم " يكون أكثر بروزاً ، وأشد سلطاناً ، وأعمق إيحاءً ، وأثرى دلالة .

وقد علل الزيات بروز هذه السمة الأسلوبية فى كلامه –ﷺ– ولمح من

---

[١] فى كنز العمال : إذا قلت فسدد ، ولا تكلف إذا قضيت حاجتك ٣٤٦/٣ ، حديث رقم ٦٨٦٤ كتاب صدق الحديث.

[٢] يراجع كتاب الصناعتين ١٩٣ ، والعمدة ٢٤١.

[٣] البيان والتبيين ١٧/٢، ١٨ للجاحظ.

[٤] عبقرية محمد للعقاد ١٠٣.

[٥] جامع العلوم والحكم ٩.

ورائها معنى نفسياً دقيقاً فقال : (والإيجاز غالب على أسلوب الرسول ، لأن الإيجاز قوة فى التعبير ، وامتلاء فى اللفظ ، وشدة فى التماسك ، وهذه صفات تلاءم قوة العقل ، وقوة الروح ، وقوة الشعور ، وقوة الذهن ، وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون فى الرسول ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم فى خطبه وأحاديثه حتى عدت من خصائصه) .[١]

وإذا اقتربنا من هذين الحديثين الشريفين الجامعين ، نجد أن كلام علماء الحديث وشراحه ينصب على ثراء ألفاظهما ، وإيجاز أسلوبهما ، بما ينأى بهما عن المساواة .

فالحديث الأول : أصل فى الورع ، حتى قال بعضهم : " الورع كله فى ترك ما يريب إلى ما لا يريب ... " [٢] وذلك راجع إلى الوقوف عند الشبهات واتقائها وهو ما يدل عليه الحديث الثانى ، الذى أجمع العلماء على عظم موقعه ، وأنه أحد الأحاديث التى عليها مدار الإسلام ، فعن ابن العربى : أن هذا الحديث يمكن أن ينتزع منه – وحده – جميع الأحكام .

قال القرطبى : لأنه اشتمل على التفصيل بين الحلال وغيره ، وعلى تعليق جميع الأعمال بالقلب ، فمن هنا يمكن أن يرد إليه جميع الأحكام.[٣]

وهو كلام واضح وصريح – بطريق اليقين – أن فى هذه الأحاديث من الاقتصاد فى العبارة ، والثراء فى المعنى ما ليس فى غيرها .

وللمرء أن يسأل : كيف استطاع علماؤنا أن يستخرجوا من هذه السطور ثلث

---

(١) وحى الرسالة ١٠٧/٣.

(٢) المجالس السنية ٧٥.

(٣) عمدة القارئ ٣٤٣/١ ، فتح البارى ١٥٩/١.

الدين ، أو أن يستنبطوا منها جميع الأحكام على ما ذكر الفقيه الأعظم ابن العربى ، وأيده القرطبى ؟ !

كيف يستطيعون ذلك رغم ما فى التعامل مع النصوص الشرعية من ضوابط وقواعد أصولية صارمة ، لا تحرر فيها ولا تساهل ، على خلاف النصوص الأدبية الأخرى التى ترهق النص بما يحتمل وما لا يحتمل ؟

إن علماءنا فتقوا من وراء هذه الألفاظ تلك المعانى الضخمة والأحكام الشرعية الجامعة ، لأنهم لم ينظروا إلى هذه السطور الشريفة ، تلك النظرة المنطقية التى رأوا من خلالها أن ألفاظ الحديث على قدر معانيه بلا زيادة ولا نقصان ...وما هكذا يقاس الكلام البليغ ، ولا بهذه الطريقة يحلل النظم العالى .

إن ثمة إبداعاً فى الفهم ومستوى من الإدراك ، نجده فى فهم بلاغة رسول الله -ﷺ- قد لا نجد مثله فى فهم كلام غيره من فرسان البيان ، وهذا ما أتاح لعلماء الحديث وشراحه أن يروا فى كلامه - ﷺ- ما غفل عنه غيرهم ، من المعانى والحكم ولطائف الإشارات .

والإشارة إلى ذلك والكشف عنه مما يخرج بالبحث عن مساره ، ولكن أشير هنا إلى ما يكشف عن بناء هذا الأسلوب على الإيجاز لا على المساواة .

فالحديث على وجازته جمع الطرق كلها ، أعنى طريق الحلال ، وطريق الحرام ، وطريق المشبهات ، وهى ما تدور عليه حياة الإنسان فى أى مرحلة من مراحل حياته ، وفى كل مكان من أماكن معاشه .....، لا تخرج عن هذه الطرق الثلاثة تأمل جملة " الحلال بين " وراجع استنباطات العلماء منها ، تجد معانى ثرة ، وأحكاماً شريفة مستوحاة من هذه الجملة القصيرة [1] .... وكذلك سواها من الجمل

[1] الفتوحات الوهبية ١١٢.

والعبارات فى الحديث .

ثم إن الحديث الشريف فيه من العبارات ما يحتمل تأويلات متعددة [١] ، وقراءات متباينة ، فتكون الجملة متسعة لمعنى أو معان متعددة ، وهذا إنما يرجع إلى إيحاءات الألفاظ وظلالها ، ودلالاتها المتنوعة .

من مثل قوله -ﷺ- : " ومن وقع فى الشبهات ..... " قال العلماء : إن الجملة تحتمل معنين : أحدهما : من أكثر من تعاطى الشبهات صادف الحرام ، وهو لا يشعر به ، والثانى : أنه يعتاد التساهل ويتمرن عليه ويجسر على شبهة ثم أخرى أغلظ منها ، وهكذا حتى يقع فى الحرام عمداً .[٢]

وتأمل توزيع الذكر والحذف توقن أنه إنما جاء بميزان دقيق ، ولاعتبارات أسلوبية وبيانية عالية .

فقد يظن أن الأسلوب قد يستغنى عن كلمة " يرعى " لدلالة كلمة " راع " عليه فى قوله -ﷺ- : " كراع يرعى حول ..... " لكن عند التأمل نلحظ أنها إنما جاءت لإشباع المعنى وإحضاره فى ذهن السامع فضلاً عما بينهما من تناسق صوتى .

وكذا الحال فى كلمة " فى أرضه " فى قوله -ﷺ- : " ألا وإن حمى الله فى أرضه .... " مع أن الكلام يفهم بدونها ، وقد حذفت فى حمى الملوك ، فلم يقل : ألا وإن لكل ملك حمى فى أرضه ... فما سر هذا التباين والتبادل بين الحذف والذكر ؟

إن الكلمة هذه إنما جاءت لتشبع المعنى ، وتلفت إليه ، وتجعله نصب العين وموضع الاهتمام .

---

[١] لذلك نماذج عدة ، راجع على سبيل المثال – شرح العلماء لحديث : إذا لم تستح فاصنع ما شئت ".

[٢] جامع العلوم والحكم ١٠٠ ، الفتوحات الوهبية ١١٥.

هذا المعنى – كما يقول علماء الحديث – هو بعد المناسبة بين حمى الملوك، وبين حمى الله تعالى ، الذى هو الملك الحق ، لا ملك حقيقة إلا له سبحانه وتعالى ، وهذا الفرق المائز بين الحمى الحقيقى ، والحمى الشكلى ، جعل بعض شراح البخارى ، لا يرى مناسبة معنوية بين الجملتين تسوغ العاطف ، وقصرها على المناسبة اللفظية ، أعنى : تكرار لفظ الحمى فى كلتيهما .[١]

ولأجل هذه اللطيفة – أيضاً – حذفت كلمة " يوشك " فى جملة وذكرت فى أخرى " ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه " ، وذلك : إما تحقيقاً للوقوع ، وإما لأن حمى الأملاك حدوده محسوسة يدركها كل ذى بصر ، فيجوز أن يتحرز منها إلا أن تغلبه الدابة الجموح، وأما حمى الله فهو معقول لا يدركه إلا ذوو البصائر فربما يحسب الشخص أنه يرتع حول الحمى ، فإذا هو وسط محارمه . [٢]

وتأمل تكرار " ألا " فى مستهل كل جملة من جمل الحديث لتحقيق هذه الجملة وتأكيدها ، وهى تفيد التحقيق من جهة تركيبها مع همزة الاستفهام ولا النافية ، وهمزة النفى إذا دخلت على النفى أفادت التحقيق .... وهو كثير فى النظم القرآنى والبيان النبوى .

يقول الزمخشرى : ولكونها بهذا المنصب لا تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم ، كما أن فى إعادتها وتكريرها دليل على عظم شأن مدلولها [٣].

---

[١] ينظر عمدة القارئ شرح صحيح البخارى ٣٤٢/١ . والفتوحات الوهبية ١١٦.

[٢] الفتوحات الوهبية ١١٥.

[٣] فتح البارئ ١٥٩/١، الفتوحات الوهبية ١١٦.

وقد قرنت بـ " إن " فى كل عبارات الحديث ، خلا الجملة الأخيرة ألا وهى القلب " لأن الكلام السابق قد هيأ الذهن لمضمون هذه الجملة ، حتى لتكاد النفس اليقظى والفهم الثاقب يدرك الفكرة قبل سماعها ومن – ثم – لم تكن حاجة إلى التأكيد بـ " إن " .

إلى غير ذلك من مظاهر الإيجاز ، كحذف المسند إليه فى قوله " كراع يرعى " والتقدير : والذى وقع فى الشبهات مثل راع ..... " وحذف مفعول " يرعى " إذ لا يتعلق بذكره غرض ، وحذف وجه الشبه لتذهب نفس السامع فيه كل مذهب، ويتخيل كل قارئ وسامع ما شاء من مظاهر الشبه بين الصورتين ..... فإن الراعى إذا جره رعيه حول الحمى إلى وقوعه فى الحمى استحق العقاب ، فكذلك من أكثر الشبهات حتى وقع فى الحرام ، فإنه يستحق العقاب بسبب ذلك .

ليس هذا فحسب ، بل إن اختيار الألفاظ قد جاء بدقة وعناية ، إنها من تلك الألفاظ الموحية الزاخرة بالكثير من الظلال والدلالات . ومن ذلك قوله :

– وقع : أى سقط فيه ، وكل سقوط شديد يعبر عنه بذلك ، وإيثارها ، لأنه أراد الوقوع فى الشئ والانغماس فيه ، والتدهور فى جوانبه ، وهو غير الإلمام البسيط .

– والحمى : مجاز عما نهى الله عنه ، لأن ما نهى الله عنه كأن الله حماه، فلا يقرن به أحد من خلقه ، وليس له من معنى الحمى إلا عدم الاقتراب واللفظة جاءت فى مثل نبوى . لتوحى بأن المسلم حين يسمح لقدمه بأن تتزحزح قليلاً عن الحلال البواح إلى ما فيه شبهة ، فقد تهيأ إلى خطوات تالية تقوده حتماً إلى الحرام البواح . [1]

[1] ينظر : شرح أحاديث من صحيح البخارى ١٩٨.

فليس – ثمة – حدود وفواصل محسوسة ، بل إن الأمر يحتاج إلى يقظة ووعى ، ومراقبة وبصيرة ، وقد سمعت من بعض مشايخنا : أن من تهاون فى المندوبات حرم بركة السنن ، ومن تهاون فى السنن حرم بركة الفرائض ، ومن تهاون فى الفرائض حرم بركة الإسلام ، وكل ذلك وغيره من إيحاءات الكلمة وظلالها .

– وفى إيثار" يرتع " تقبيح وتنفير من هذه الصورة ، وتحذير من الوقوع فيها لأن أصله : أكل البهائم ، ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير وعلى طريق التشبيه . [1]

– وفى إيثار " الجسد " على " الإنسان " مثلاً ، إشارة إلى أن الإنسان بدون هذه المضغة جسد لا غير ، وقد جاء الجسد فى القرآن بمعنى الميت : ﴿ ❐◆🕮❐⓾♦❶◆☪❼■🖋◆↖ 🖋◆☪⓾♦❶❐🕮◆❐ 🗐❼■🖋◆↖ ﴾ ص/ ٣٤ .

وفى الإتيان بالمضغة وتنكيرها إشارة إلى تلك المفارقة العجيبة فهى قطعة صغيرة ، وفيها مع ذلك صلاح الإنسان أو فساده ، إيمانه أو كفره ، فهى – مع صغرها – كبيرة الشأن ، عظيمة الخطر .

كل هذا وغيره ينفى أن يندرج أحد هذين الحديثين ضمن طريق المساواة ، وقد رأينا من إشارات علماء الحديث وتحليلاتهم ما يؤكد ذلك ويقويه ، فالقول بالمساواة فيه غفلة عن تدبر إيحاءات الألفاظ ودلالتها ، والظلال التى يخلعها وراء المعانى ، والوقوف بها عند دلالتها المعجمية .

---

[1] المفردات فى غريب القرآن ٢٤٨ ، ٢٤٩.

الخاتمة

حمداً لله وصلاة وسلاماً على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه وبعد ،

فبعد معايشة هذا الأسلوب البلاغى وخلاف العلماء فى ضابطه ومقياسه وفى الاستشهاد له .. يحسن أن نشير إلى بعض النتائج والتوصيات التى خلص إليها البحث .

– كان خلل بعض القواعد فى هذا الفن ناشئاً من وضع القاعدة أولاً ثم الاستشهاد عليها ، مما ترتب عليه – أحياناً – وجود خلل وفجوة بين القاعدة والشاهد ... أورد البحث نماذج لها .

– دار خلاف واسع حول مفهوم المساواة ، وضابطها ، ومقياسها ، وشواهدها ، ورتبتها فى البيان ... ولم يصل الخلاف فى ذلك إلى نتيجة مرضية ، ولا خلاصة مقنعة .. رغم ما حفل به ذلك الخلاف من كثرة المناقشات والردود .

– رصد البحث هذه الآراء وناقشها ورجح مذهب من رفض هذا الأسلوب ، وأوصى بإسقاطه من بين وسائل التعبير ، وطرائق الكلام ، والاكتفاء بالطريقين الآخرين ، إذ لا وجود للمساواة على الحقيقة ... فقد كان ذكر السكاكى له من قبيل القسمة العقلية . وليتوصل بها إلى فهم الإيجاز والإطناب المقبولين .

– قد ترتب على هذا الخلل خلل أكبر هو الاستشهاد للمساواة بشواهد من الكلام البليغ بل ومن النظم المعجز ، مما يترتب عليه إخراج هذه الشواهد من دائرة البلاغة .

– أعاد البحث قراءة هذه الشواهد ، ولمس فيها من أسرار البيان وآيات الإعجاز ، ما يجعلها تسمو فى درج البيان ، ويجعل إدراجها ضمن " المساواة " غفلة وسهو عما اشتملت عليه هذه المثل من وجازة فى اللفظ وتكثيف فى المعنى ، وإيحاءات نفسية دقيقة ، تحتاج إلى من يحسها ويتذوقها ويكشف عنها ، وذلك بعد

أن تقرأ قراءة متجردة بعيدة عما قيل فيها من قبل ، مع ربط كل شاهد بسياقه ، إذ إن له الأثر الأكبر فى اصطفاء الأسلوب .

– بدا من خلال تناول هذه المثل أن للعلماء الذين جمعوا بين علم البلاغة ، وبين تفسير القرآن وشرح الحديث ... من رهافة الحس ، وسلامة الذوق ما ليس لغيرهم ، وما ذلك إلا لأن هناك إبداعاً فى الفهم ، ومستوى من الإدراك والتذوق لبلاغة القرآن والحديث لا نجد مثله فى فهم كلام البشر .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباحث .

فهرس المصادر والمراجع

- أسرا البلاغة – عبدالقاهر الجرجانى – ت/ محمود شاكر – دار المدنى بجدة – أولى ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .
- أسس بلاغية تطبيقها على البيان القرآنى محظور – د / عبدالعظيم المطعنى – بحث بمجلة كلية اللغة العربية – جامعة أم القرى – العدد الأول ١٤٠١هـ .
- الإيضاح مع البغية – الخطيب القزوينى – ت/ عبدالمتعال الصعيدى ، مكتبة الآداب – أولى ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٩ م .
- البناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر – د/ على على صبح – المكتبة الأزهرية للتراث – ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.
- البيان والتبيين – الجاحظ – ت عبدالسلام هارون – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر– ط أولى – ١٣٦٧ هـ – ١٩٤٨م .
- تجريد البنانى على مختصر السعد – البنانى – ط/ بولاق ١٣١١هـ .
- تحرير التحبير – ابن أبى الأصبع المصرى – ت د / حفنى محمد شرف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م .
- التحرير والتنوير – الطاهر بن عاشور – الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م .
- التفسير الكبير – المطبعة البهية المصرية.
- التفسير النفسى للأدب – د/ عز الدين إسماعيل – مكتبة غريب ٠ ط رابعة ١٩٨٤ م .
- جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم – ابن رجب الحنبلى – دار العقيدة – ط أولى ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢م .
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى – دار صادر

- الخصائص – ابن جنى – ت محمد على النجار – بدون .
- خصائص التراكيب – د / محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – ط خامسة ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م .
- ديوان البحترى – ت / حسين كامل الصيرفى – دار المعارف . ط ثالثة .
- ديوان البوصيرى – ت / محمد سيد كيلانى – شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ١٣٩٥م هـ – ١٩٧٥م .
- ديوان الجعفرى – الشيخ صالح الجعفرى الأزهرى – مطبعة السعادة – ط أولى ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .
- ديوان زهير بن أبى سلمى – شرحه على حسن فاعور – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .
- ديوان طرفة بن العبد – شرحه / مهدى محمد ناصر الدين – دار الكتب العلمية.
- ديوان العباس بن الأحنف – ت / عاتكة الخزرجى – مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٣هـ –١٩٥٤م .
- ديوان المعانى – أبو هلال العسكرى – ت / أحمد حسن بسج – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط اولى ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م .
- ديوان النابغة الذبيانى – ت / عباس عبدالساتر – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط ثالثة ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .
- سنن الترمذى – ت كمال الحوت – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤٠٨ – ١٩٨٩م .
- سر الفصاحة – ابن سنان الخفاجى – ت / عبدالمتعال الصعيدى – مكتبة محمد على صبيح ١٣٨٩هـ – ١٩٦١م .

- شرح أحاديث من صحيح البخارى – د/ محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – ط أولى ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م .
- شرح عقود الجمان فى علم المعانى و البيان – جلال الدين السيوطى – مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ١٣٥٨هـ – ١٩٣٩م .
- شروح التلخيص – دار السرور – بيروت – لبنان .
- الشعر والشعراء – ابن قتيبة – ت / أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ط أولى ١٤١٧هـ – ١٩٨٦م .
- صحيح البخارى – عالم الكتب – بيروت – لبنان – ط خامسة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .
- صحيح مسلم – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .
- الطراز – العلوى – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.
- عبقرية محمد – عباس محمود العقاد – مكتبة الأسرة – ٢٠٠٣م .
- علم المعانى – د/ بسيونى فيود – مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – ط ثانية – ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١م .
- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده – ابن رشيق القيروانى – ت/ محمد محى الدين عبدالحميد – دار الجيل للنشر والتوزيع – بيروت –لبنان .
- عمدة القارئ على شرح صحيح البخارى – بدر الدين العينى – شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى – ط أولى ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م. .
- عيار الشعر – ابن طباطبا العلوى – ت / عباس عبدالساتر – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .
- فتح البارى شرح صحيح البخارى – ابن حجر العسقلانى – ت عبدالعزيز بن

باز – دار المنار – ط الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م .

- الفتوحات الوهبية لشرح الأربعين حديثاً النووية – الشيخ / إبراهيم بن مرعى بن عطية – مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر – أولى ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م .
- كتاب الصناعتين – أبوهلال العسكرى – ت / د مفيد قميحة – دار الكتب العلمية – ط أولى ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .
- كتاب المفتاح – سعد الدين التفتازانى المكتبة الأزهرية للتراث ١٣٣٠هـ.
- كنز العمال – المتقى الهندى – ت / الشيخ بكرى حيانى وآخرين مؤسسة الرسالة ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .
- معترك الأقران من إعجاز القرآن الكريم – جلال الدين السيوطى – ت / أحمد شمس الدين – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – – محمد فؤاد عبدالباقى – مؤسسة جمال للنشر – بيروت – لبنان .
- المفردات فى غريب القرآن – الراغب الأصفهانى – مكتبة نزار مصطفى الباز.
- من أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم (الفاء – ثم) د/ محمد الأمين الخضرى – مكتبة وهبة – ط أولى ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م .
- النبأ العظيم – نظرات جديدة فى القرآن الكريم – د / محمد عبدالله دراز – دار القلم للنشر والتوزيع – ط ثامنة ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .
- نسج البردة – عبدالله الهدار الحضرمى – ت / حسنين محمد مخلوف – مطبعة المدنى بالقاهرة – ط ثانية ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨م .
- النقد الأدبى أصوله ومناهجه – سيد قطب – دار الشروق – ط ثانية

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

- نقد الشعر قدامة بن جعفر – مطبعة الجوائب – قسطنطينية – طبعة أولى ١٣٠٢هـ .
- نهج البردة – أحمد شوقى – شرح الشيخ / سليم البشرى – مكتبة الآداب ١٤١٢هـ - ١٩٩٩م .
- وحى الرسالة أحمد حسن الزيات – دار الثقافة – بيروت –لبنان – ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- الوساطة بين المتنبى وخصومه – القاضى / على عبدالعزيز الجرجانى – ت / محمد أبو الفضل إبراهيم ، على محمد البجاوى – منشورات المكتبة العصرية – بيروت –